

لم اكن كافيا

رواية

معتز هيثم كرم

(1)

كان الصمت في بيتنا ضعيفاً ثقيلاً لا يغادر، يملأ الزوايا التي كان من المفترض أن يملأها صوت رجل. لم أكن أدرك في سنواتي الأولى

معنى كلمة "أب" كما يدركها بقية الأطفال؛ كانت بالنسبة لي كلمة غامضة، تشبه أسماء المدن البعيدة التي نسمع عنها ولا نراها.

كبرت وأنا أرى "معتز" في المرآة وحيداً خلف ظهره، لا سند يتكى عليه سوى جدارٍ شيدته أمي بدموعها وصبرها. كانت تلك المرأة هي الجيش والوطن، هي السقف والأعمدة. أتذكر جيداً تلك الليالي التي كنت أستيقظ فيها على صوت نسيج مكتوم، فأراها جالسة في الصالة المظلمة، تحرق في الفراغ، وكأنها تنتظر طارقاً لن يأتي أبداً.

غادر هو.. هكذا ببساطة. حزم حقائبه ورحل، تاركاً خلفه طفلاً لم يشد عوده بعد، وامرأة حملت ثقل الجبال على كتفها. لم يكن غيابه مجرد سفر أو بعد مسافات، بل كان انسحاباً كاملاً من مسرح حياتنا، كأنه قرر فجأة أن دوره في الحكاية قد انتهى قبل أن يبدأ.

في المدرسة، كانت نظراتي تلاحق الآباء الذين يأتون لاصطحاب أبنائهم. كنت أرى كيف يركض الأطفال نحوهم، وكيف تُحمل الحقائب عن الظهر الصغيرة، وكيف تُشبك الأيدي الكبيرة بالأيدي الغضة في أمان مطلق. كنت أقف هناك، يدي في جيبتي، أنتظر أمي التي كانت تأتي دائماً بابتسامة واسعة تحاول بها أن تسد ثغرة الكون بأكمله. كانت تحاول أن تكون الأب والأم، الصديق والمعلم، لكن فطرة الطفل لا تخطئ؛ كان هناك فراغ.. فراغ بحجم رجل.

لماذا نحن وحدنا يا أمي؟" سألتها ذات مساء ونحن نتحلق حول " مائدة العشاء. كانت المائدة صغيرة، لكنها بدت واسعة جداً علينا.

توقفت يدها عن الطعام، وابتلعت غصة واضحة قبل أن تجيب بصوت حاولت أن تجعله متماسكاً: "نحن لسنا وحدنا يا معتز، الله". معنا، وأنا معك، وأنت تملأ دنيتي كلها.

كانت إجابة دافئة، لكنها لم تطفى نار السؤال. كبرت وكبر معي السؤال، وتحول من استفسار طفولي إلى جرح غائر. بدأت أحاول فهم الأسباب، وتسئل إليّ شعور مبهم بالذنب؛ هل كنت أنا السبب؟ هل بكائي كان مزعجاً؟ هل طلباتي كانت كثيرة؟

مرت السنوات الأولى ثقيلة وبطيئة. تعلمت فيها الدرس الأول والأقسى في حياتي: لا أحد سيدوم لك سوى من قرر البقاء بارادته. وبينما كان أقراني يتعلمون ركوب الدراجات بمساعدة آبائهم، كنت أنا أتعلم كيف أوازن نفسي بنفسي، وكيف أقع وأقوم دون أن تمتد يد لتنفذ الغبار عن ركبتي.

كانت أمي تلاحظ تلك النظرة في عيني، نظرة الانكسار التي حاولت إخفاءها. فكانت تغمرني بحنان مضاعف، تشتري لي الألعاب، وتأخذني في نزعات، لكن شيئاً ما في داخلي ظل ناقصاً. كان قلبي يشبه بيتاً جميلاً سقط جداره الرابع، فصار مكشوفاً للرياح والبرد.

ومع كل سنة تمر، كان الأمل يتضاءل في عودته، ويحل محله شعور آخر.. شعور بالرغبة في المواجهة. كنت أريد أن أكبر بسرعة، لا لأصبح رجلاً فحسب، بل لأبحث عنه، لأقف أمامه وأسأله السؤال "الذي حُبس في حلقي لسنوات: "لماذا تركتنا؟"

لم أكن أعلم حينها أن خذلانه لم يكن سوى الفصل الأول في رواية طويلة من الألم، وأن محاولاتي لترميم هذا الكسر ستكلفني سنوات من عمري، وستقودني في طرقات وعرة لم تخطر لي على بال. كنت أظن أن غيابه هو أسوأ ما قد يحدث، ولم أكن أدري أن محاولة استعادته ستكون هي الجحيم بعينه.

في تلك الليلة، نظرت إلى صورتني في المرآة، ومسحت دمعة يتيمة فرت من عيني، وعاهدت نفسي: "سأكون قوياً لأجلها.. ولأجلي". لكن، في عمق روحي، كان الطفل الصغير ما زال واقفاً عند الباب، ينتظر ظلاً لن يعود.

لم تكن أمي مجرد امرأة تسكن البيت، بل كانت هي البيت ذاته. في السنوات التي تلت رحيله، تحولت تلك السيدة الرقيقة إلى حصن منيع، جدرانه مشيدة من الصبر وسقفه من الدعاء. كانت تدرك بفطرتها أن العالم الخارجي لن يرحم طفلاً بلا أب، فقررت أن تكون هي الجيش الذي يحميني من نظرات الشفقة ومن وخزات الأسئلة الفضولية.

كنت أراقبها وهي تمارس طقوسها اليومية في صمت. تستيقظ قبل الشمس، وتعد لي إفطاري، وترتب ثيابي، وكأنها تجهز أميراً صغيراً ليوافه مملكته. لم تكن تكتفي بدور الأم التي تطعم وتسقي، بل كانت تحاول جاهدة أن تملأ الفراغ العظيم الذي خلفه رجل قرر الانسحاب. كانت تلعب معي الكرة في الممرات الضيقة، وتجلس بجانبني لتساعدني في حل مسائل الحساب المعقدة، وتتقمص أصوات الشخصيات في القصص التي ترويها لي قبل النوم، لتوهم عقلي الصغير أن الحياة كاملة، وأن النقص مجرد خرافة.

لكن عيني الطفل لا تخطنان أبداً. كنت ألمح التعب المختبئ خلف ابتسامتها المشرقة، وأرى ذبولاً خفيفاً في عينيها عندما تظن أنني نائم. كانت تعود من عملها محملة بأكياس المشتريات، وأكتافها مثقلة بهموم لا تبوح بها لأحد. ومع ذلك، بمجرد أن تلمح وجهي، كانت تنفض غبار التعب وتتحول في لحظة إلى نبع من الحيوية، تضحك وتمزح، وكأنها لم تذق طعم المشقة طوال يومها.

كانت هي "الحنين" الوحيد في عالم بدأ يكشر عن أنيابه مبكراً. في الأوقات التي كنت أشعر فيها بالوحدة أو الخوف، لم يكن هناك صدر ألبأ إليه سواها. كانت ذراعاها ملاذي الآمن، وكلماتها بلسم يداوي خدوش الروح التي يسببها غياب الأب. أتذكر يوماً عدت فيه من المدرسة باكياً لأن أحد الزملاء سخر من كوني آتياً دائماً برفقة أمي فقط. لم توبخني ولم تقلل من ألمي، بل ضمتني بقوة وهمست في أذني: "أنت لست ناقصاً يا معتر، أنت رجل البيت، وأنا أستند عليك". كما تستند عليّ.

زرعت تلك الكلمات في داخلي بذور المسؤولية قبل أوانها. بدأت أشعر أن عليّ ديناً كبيراً لهذه المرأة، ديناً لا يسدده المال، بل يسدده النجاح والأمان الذي يجب أن أوفره لها. كنت أرى كيف تقتصد في احتياجاتها الشخصية لتشتري لي ما أريد، وكيف تفضلني على نفسها في كل شيء، حتى في قطعة اللحم في طبق الغداء.

ومع مرور الأيام، تحول حبي لها إلى نوع من العبادة الصامتة. كانت هي الشمعة التي تحترق لتضيء ظلمة أيامي، والجسر الذي عبرت عليه من طفولة هشة إلى صبا واعد. لكن، ورغم كل هذا الفيض من الحب، ظل هناك ركن مظلم في قلبي لا يصله ضوءها. كان ركناً بارداً، يسكنه شبح الرجل الغائب.

كنت أتساءل في سرّي: "هل كان يستحق كل هذا التعب منها؟ وهل سيعود يوماً ليقدر ما فعلته؟". كانت الأسئلة تتكاثر، والرغبة في استعادة "الصورة الكاملة" للعائلة تلح عليّ. لم أكن أدرك حينها أن محاولتي لترميم تلك الصورة الممزقة ستكون بمثابة فتح لباب من الجحيم، وأن حنان أمي، رغم عظمتها، لن يكون كافياً لحمايتي من خيبات الأمل التي يخبئها لي القدر مع والدي.

كبرت وكبر معي الامتنان لها، وكبرت أيضاً الرغبة في المواجهة. لم أعد أكتفي بالدفاع السلبي وبالحصن الذي بنته أمي؛ بل بدأت تتشكل

لدي رغبة جامحة في الخروج من هذا الحصن، والبحث عن النصف
الآخر من حقيقتي، مهما كان الثمن مؤلماً

كبرت وكبرت معي الأسئلة، لم تعد مجرد خواطر عابرة، بل تحولت
إلى هاجس يلح عليّ ليل نهار. كانت صورة أمي وهي تذوي في
صمت لتمنحني الحياة تزيد من شعوري بالذنب، لكن الفضول كان
أقوى من أي منطق. كنت أريد أن أعرف الطرف الآخر من الحكاية،
الرجل الذي يحمل نصف ملامحي واسمي

عثرتُ على الرقم مصادفةً في أجندة هاتف قديمة ملقاة في درج
مهمل. كان الورق مصفراً، والأرقام مكتوبة بخط باهت، وكأن الزمن
حاول مسحها رحمةً بي. لكن عيني التقطتها وكأنها طوق نجاة.
حفظتُ الرقم عن ظهر قلب، رددته في سري مائة مرة حتى حفر في
ذاكرتي كوشم لا يزول

انتظرتُ حتى نامت أمي، وتأكدتُ أن أنفاسها انتظمت في غرفتها.
تسللتُ إلى الهاتف الأرضي في الصالة، وكانت يدي ترتجف وأنا
أرفع السماعة. كان الصمت في البيت ثقیلاً، ودقات قلبي تعلو على
صوت عقارب الساعة المعلقة على الحائط. رفعتُ السماعة، وتلاشت
الشجاعة التي جمعتها طوال اليوم في لحظة واحدة، لكن رغبتني في
سماع صوته دفعتني للضغط على الأزرار

..رنة.. رنتان.. ثلاث

مع كل رنة، كان الأمل يرتفع ويهبط، وكنت أتخيل السيناريوهات:
هل سيرحب بي؟ هل سيبيكي نادماً؟ هل سيقول لي "اشتقت إليك يا
بني"؟

:فجأة، انقطع الرنين، وجاء صوت خشن، غريب، ومقتضب
"الو.. مين؟"

تجمد الدم في عروقي. كان هذا هو الصوت الذي حُرمت منه
لسنوات. حاولتُ أن أستجمع قواي، وخرج صوتي مهزوزاً، صغيراً،
:وكأنني عدت طفلاً في الخامسة
".أنا.. أنا معتز"

ساد صمت طويل ومريب على الطرف الآخر، صمت شعرت فيه
ببرودة تسري عبر الأسلاك لتصل إلى أذني. لم يكن صمت الدهشة
.المحبية، بل كان صمت الارتباك، وربما.. الانزعاج

:جاء الرد جافاً، خالياً من أي عاطفة
"معتز؟.. جبت الرقم ده منين؟"

لم يسأل عن حالي، لم يسأل عن دراستي، لم يسأل إن كنت آكل جيداً
أو إن كنت سعيداً. كان سؤاله الأول تحقيقاً. شعرتُ بغصة في حلقي،
لكنني تمسكتُ بطرف الخيط الواهي

لقيته في الأجندة القديمة.. كنت بس عاوز أسمع صوتك يا بابا.. "
وحشتني

لفظتُ كلمة "بابا" بصعوبة، وكأنها كلمة غريبة على لساني. توقعتُ
أن تذيب هذه الكلمة الجليد، لكن الرد كان صفة لم أستعد لها

:تنهد بضيق مسموع وقال بنبرة عملية قاسية

اسمع يا معتر، اللي فات مات. أنا دلوقتي ليا حياتي وظروفي، "
ومينفعش نفتح في اللي فات. أمك قايمة بالواجب وزيادة، مش
"كده؟

كانت كلماته كالرصاص. "حياتي وظروفي" .. وكأنني كنت خطأً
مطبعياً في كتاب حياته يريد تمزيق صفحته

:قلتُ بصوت مخنوق، أحاول استجداء أي ذرة من الأبوة

"بس أنا محتاجك.. أنا بكبر وعاوزك جنبي"

:قاطعني بحدة

بقولك إيه، أنا مش فاضي للمناهدة دي. متتصلش هنا تاني عشان " متعمليش مشاكل. لو عزت حاجة ضروري ابقى كلمني وقت تاني، "بس مش دلوقتي

.ثم، ودون أي مقدمات، انقطع الخط

عادت حرارة الهاتف تصدر طنينها المزعج المستمر "توت..
"توت".

أنزلتُ السماعَةَ ببطء، وجلستُ على الأرض بجوار طاولة الهاتف. كان العالم يدور حولي. لم أكن أبكي، بل كنت في حالة من الذهول. كيف يمكن لإنسان أن يتخلى عن قطعة من روحه بهذه البساطة؟ كيف يمكن للأب أن يكون بهذا الجفاء؟

في تلك اللحظة، أدركتُ أن غيابه لم يكن ظرفاً قهرياً، بل كان اختياراً. لقد اختار أن يمحوني من حياته، وبينما كنت أنا أبني له قصوراً من الآمال في خيالي، كان هو يبني جداراً عازلاً ليمنعني من الاقتراب.

نظرتُ نحو باب غرفة أمي، وشعرتُ بخزي شديد. كيف تجرأتُ على البحث عنه وهي هنا؟ كيف سعيثُ وراء سراب وتركتُ النبع الحقيقي؟ لكن الدرس كان قاسياً، وكان لا بد أن أتعلمه بنفسي. تلك المكالمة لم تكن وصلاً، بل كانت بداية القطيعة الحقيقية، الشرخ الذي لن يلتئم أبداً.

عدتُ إلى فراشي، وتغطيتُ جيداً وكأني أحتمي من برد الكلمات التي سمعتها، وعرفتُ ليلتها أن طريق الرجوع إليه مسدود، وأن عليّ أن أشقّ طريقَي وحدي، حتى لو كان الثمن أن أدوس على قلبي رغم برودة المكالمة الأولى، ورغم تلك النبرة التي كانت تشبه صرير باب صدئ، إلا أن قلب الطفل لا يعترف بالمنطق. كنت أبرر قسوته بألف عذر: "ربما كان متعباً"، "ربما ضغط العمل"، "ربما فاجأته ولم يعرف كيف يعبر". كان الأمل نبتاً شيطانياً ينمو في أرض القحط، يتغذى على أقل القليل من الوهم.

بعد أسابيع من المحاولات والملاحقة، وبعد اتصالات قصيرة كانت تنتهي بوعود مبهمة، انتزعت منه أخيراً وعداً بلقاء. "سأراك يوم الجمعة في المقهى القريب من المحطة". قالها بنفاد صبر، وكأنه يلقي لي بقطعة عظم ليسكت جوعي، لكنني تلقفتها كأنها جائزة كبرى.

لم أتم ليلتها. كنت أرسم المشهد في خيالي ألف مرة: كيف سأعانقه؟ هل سيلاحظ أنني طولت؟ هل سيعجبه قميصي الجديد الذي كوته أمي بعناية فائقة رغم أنها كانت تعلم، بقلبها البصير، أنني ذاهب لأكسر نفسي؟ لم تمنعني، ولم تقل كلمة تحذير واحدة، اكتفت بنظرة حزينة وكأنها تودع جندياً ذاهباً لمعركة خاسرة.

وصلتُ قبل الموعد بساعة. اخترت طاولة في زاوية تطل على الباب مباشرة، حتى لا تفوتني لحظة دخوله. طلبت عصيراً لم أشربه، وجلست منتصب الظهر، أراقب الوجوه الداخلة والخارجة.

مرت الساعة الأولى ثقيلة. كانت عقارب الساعة المعلقة فوق "الكاشير" تتحرك ببطء مستفز، وكأنها تتواطأ مع الوقت لتعذبي. كلما فتح الباب، كان قلبي يقفز، ثم يعود ليهبط خائباً حين يدخل غريب لا أعرفه.

بدأ الزحام يشتد في المقهى، وارتفعت أصوات الضحك والحديث والحياة من حولي، بينما كنت أنا جزيرة منعزلة من الصمت والترقب. بدأ النادل يرمقني بنظرات متشككة، فطلبت كوباً آخر من الشاي لأشترى به وقتاً إضافياً.. وحقاً في الجلوس.

مرت الساعة الثانية.. ثم الثالثة.

بدأت الشمس تميل للغروب، وتسالت خيوط برتقالية حزينة عبر الزجاج لتستقر على الكرسي الفارغ أمامي. ذلك الكرسي الذي ظل فارغاً، يصرخ في وجهي بحقيقة كنت أرفض تصديقها.

أخرجت هاتفي، واتصلت به. رنة.. رنتان.. ثم.. "الهاتف الذي طلبته مغلق أو غير متاح".

أعدت الاتصال عشرات المرات، وفي كل مرة كان الصوت الآلي
البارد يجيبني بنفس الجملة، وكأنه يصفعني على وجهي

لم يأتِ

ببساطة، لم يأتِ

لم يحدث حادث، ولم تقع كارثة منعه. هو فقط لم يهتم. كان الوعد
كذبة، وكان الانتظار عقاباً. شعرت بصغري وضالتي في هذا العالم.
كيف يمكن لشخص أن يكون محور كونك، بينما أنت في كونه مجرد
هامش لا يُرى؟

نظرت حولي، فرأيت أباً يلعب طفله في الطاولة المجاورة، يمسح
الآيس كريم عن فمه ويضحك. شعرت بغيرة حارقة، وبدموع ساخنة
تتجمع في مقلتي، تأبى أن تنزل كبرياءً أمام الغرباء

دفعت الحساب بما تبقى معي من مصروف، وخرجت أجر قدمي جراً.
كان الشارع قد تغير، والناس قد تغيروا، والمدينة كلها بدت موحشة
وغريبة

عدت إلى البيت مكسوراً، مهزوماً، لا أحمل معي سوى خيبة ثقيلة
تملاً جيوبي وصدي. فتحت أمي الباب، وبمجرد أن رأت وجهي
الشاحب وعيني الزائغتين، عرفت كل شيء. لم تسأل: "ألم يأتِ؟"،

ولم تقل: "ألم أقل لك؟". بل فتحت ذراعيها بصمت، وارتيمت أنا
فيهما.

في تلك اللحظة، وأنا أدفن وجهي في كتفها، مات شيء بداخلي. مات
الطفل الذي كان ينتظر عند الباب، وولد مكانه شخص آخر.. شخص
يدرك أن العالم لا يمنحك ما تستحق، بل ما تنتزعه انتزاعاً، وأن
الرهان على البشر خاسر، إلا من رحم ربي.

كان ذلك "الموعد الميت" هو آخر مسمار في نعش طفولتي، وبداية
لرحلة طويلة من الوحدة النفسية، حيث قررت أن أغلق هذا الباب
للأبد، وألا أسمح لأحد أن يملك القدرة على كسري مرة أخرى.. أو
هكذا ظننت

بعد تلك الليلة، تغير شيء ما في ترتيب ذرات الهواء داخل بيتنا. لم
يعد اسم "أبي" يتردد، بل أصبح كالجثة الهامدة التي ندفنها في قبو
الذاكرة ونتظاهر بعدم وجودها. مات السؤال، وماتت معه لهفتي
الطفولية. لم أعد ذلك الطفل الذي يقف خلف النافذة، بل صرت شاباً
يحمل في عينيه نظرة شيخوخة مبكرة.

بدأتُ أبنى حولي سوراً عالياً من الصمت. في المدرسة، كنت أجلس
في المقعد الأخير، أراقب زملائي وهم يضحكون ويتدافعون، وأشعر
أنني مفصول عنهم بحجاب زجاجي سميك. كانوا يتحدثون عن خطط
العطلة، وعن هدايا الآباء، وعن مباريات الكرة التي شاهدوها معهم،
وكنت أنا أغرق في كتابي أو أرسم خطوطاً عشوائية على ورقة

بيضاء، محاولاً الهروب من ضجيج سعادتهم الذي كان يחדش
روحي.

كانت غرفتي هي مملكتي ومخبئي. أصبحت أقضي فيها ساعات
طويلة، أغلق الباب ورائي وكأنني أغلق العالم الخارجي بكل خيباته.
هناك، في تلك العزلة المقدسة، كنت أخلع قناع القوة الذي ارتديه
أمام أمي، وأسمح لنفسي بالانهيار الصامت. كنت أجلس أمام شاشة
الكمبيوتر المضيئة، وأجد فيها عزاءً غريباً. العالم الرقمي كان يبدو
لي أكثر صدقاً ورحمة من العالم الواقعي؛ هنا، لا أحد يحكم عليك
بنقصك، لا أحد يسألك عن "ظهرك" أو "سندك"، أنت هنا مجرد
اسم مستعار وكلمات، والكلمات لا تخون.

لاحظت أمي هذا الانكماش. كانت تطرق بابي بخفة، تدخل وفي يدها
طبق فاكهة أو كوب شاي، تحاول بذكاء المحبة أن تفتح ثغرة في
جدار عزلتي.

معتز، الجو جميل في الخارج، لم لا تخرج مع أصدقائك؟" كانت "
تسأل بنبرة تشي بقلقها

كنت أجيبها بابتسامة مقتضبة: "مشغول شوية يا أمي، عندي
"مذاكرة.. وحاجات تانية"

لم أكن أكذب تماماً، كنت مشغولاً حقاً، لكن ليس بالمذاكرة المدرسية
فقط. كنت مشغولاً بمحاولة فهم كيف تدار الحياة. بدأت أقرأ بنهم عن
قصص العصاميّين، عن الذين بدأوا من الصفر، عن القوة التي

يمنحها المال. تسللت إليّ قناعة سوداوية لكنها محفزة: "في هذا العالم، إذا لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب، وإذا لم تملك القوة، داسك". الأقوياء

قررتُ أن القوة هي المال. المال هو الأب الذي لا يغيب، وهو السند الذي لا يميل. بدأتُ أرى في شاشة جهازي بوابتي نحو هذا العالم. لم أكن أبحث عن الترفيه كباقي جيلي، بل كنت أبحث عن "الفرصة". كنت أقلب في المواقع، وأدخل المنتديات، وأراقب كيف يصنع الناس نجاحاتهم من غرفهم الضيقة

في تلك الليالي الطويلة، وبينما كان العالم يغط في النوم، كنت أنا مستيقظاً، عيناى معلقتان بالضوء الأزرق، وعقلي ينسج خطأً للهروب من واقعي الهش. لم أكن أعلم حينها أنني أقف على عتبة تجربة ستغير حياتي، وأن هذا الملاذ الرقمي سيتحول قريباً إلى ساحة معركة، سأحقق فيها انتصارات مبهرة، وأتجرع فيها هزائم لا تُنسى

كانت العزلة هي الشرقة التي نضجت بداخلها شخصيتي الجديدة. شخصية "معتز" الذي قرر أن يثبت للجميع، ولأبيه أولاً، أنه ليس "زيادة عدد"، وأنه قادر على صنع إمبراطوريته الخاصة، حتى لو كانت من وحي الخيال.. أو من أرباح الإنترنت

(2)

كان الليل هو صديقي الوحيد الذي لا يخلف مواعده. بينما كانت أمي تغفو بعد عناء يوم طويل، ويسكن ضجيج الشارع، كانت حياتي الحقيقية تبدأ. في تلك العزلة، وبينما كنت أقلب صفحات الإنترنت بلا هدف محدد، ظهرت أمامي تلك الأيقونة الزرقاء.. طائرة ورقية بيضاء في سماء زرقاء، شعار بدا بسيطاً وبريئاً، لكنه كان يخفي خلفه عالماً كاملاً لم أكن أعلم بوجوده.

تليجرام" .. لم يكن مجرد تطبيق للمراسلة كما يظن البعض، بل " كان مدينة سرية، مدينة لا تنام، وسوقاً ضخماً يضج بالحركة، لا تحكمه قوانين الواقع ولا يعترف بالأسماء الحقيقية. دخلته بفضول المكتشف، وبحذر الخائف من المجهول. أنشأت حساباً باسم مستعار، وتجردت من اسمي "معتز" الذي ارتبط في ذهني بالضعف والانتظار، لأرتدي قناعاً جديداً يمنحني القوة

بدأت أنتقل بين القنوات والمجموعات كمن يسير في أزقة مدينة غريبة. هنا أناس يبيعون خدمات، وهناك آخرون يتداولون عملات رقمية، وفي زاوية أخرى صفقات تتم في ثوانٍ معدودة. كانت اللغة المستخدمة غريبة، مصطلحات وشيفرات لم أفهمها في البداية، لكن رائحة "الفرصة" كانت تفوح من كل رسالة

رأيت أرقاماً تُذكر أمامي أصابتنني بالدوار. شباب في مثل عمري، وربما أصغر، يتحدثون عن آلاف الجنيهات وكأنها ورق لعب. تساءلت: "هل هذا حقيقي؟ أم أنني أمام وهم جديد؟". لكن الشك تراجع أمام بريق الأمل. تذكرت نظرة الانكسار في عين أمي عندما كانت تحسب الباقي من مصروف الشهر، وتذكرت "أبي" الذي تخلى عنا ليعيش حياته. شعرت بغضب بارد يسري في عروقي، غضب تحول إلى وقود.

سأجعل المال درعي"، هكذا حدثت نفسي. "لن أحتاج لأحد،" "وسأجعل الجميع يحتاج إليّ".

بدأت أتعلم. كنت أقضي الليالي الطويلة أقرأ، أراقب، وأحلل. تعلمت كيف تدار المجموعات، كيف يتم التسويق، وكيف تُبنى الثقة في عالم يعتمد على الأوهام. كانت عيناى تحمران من السهر، وظهري يؤلمني من الجلوس الطويل، لكن عقلي كان يتقد نشاطاً. شعرت لأول مرة منذ زمن طويل أنني "مسيطر". في هذا العالم الأزرق، لم أكن الطفل المتروك؛ كنت "العقل المدبر"، الكيان الذي أصنعه بيدي.

وفي ليلة لا تنسى، قررت أن أخطو الخطوة الأولى. لم أعد مجرد مراقب. تواصلت مع أحد المشرفين الكبار، عرضت عليه خدماتي في إدارة وتنظيم المحتوى مقابل نسبة بسيطة. كانت يدي ترتجف وأنا أضغط "إرسال". مرت دقائق بدت كساعات، ثم جاء الرد: "موافق..". "وريني شطارتك".

تلك الكلمة الواحدة كانت بمثابة المفتاح الذي فتح لي باب المغارة. لم يكن المبلغ الموعود كبيراً، لكنه كان "أول الغيث". شعرت بنشوة غريبة، نشوة من يمسك بزمام قدره بيده. نظرت إلى شاشة هاتفي. وكأنني أنظر إلى منجم ذهب اكتشفته في فناء بيتي الخلفي.

تسللت أشعة الفجر الأولى عبر النافذة، لتجدني ما زلت مستيقظاً، وعيناي تلمعان بتصميم جديد. نظرت إلى وجه أمي النائم في الغرفة المجاورة، وهمست في سري: "اعدك يا أمي، سأعوضك عن كل شيء.. وسأجعل ذلك الرجل يندم على اليوم الذي ظن فيه أننا "ضعفاء".

كانت تلك اللحظة هي بداية الرحلة. رحلة الأربع سنوات التي سأجمع فيها ثروة صغيرة، وأفقد فيها أشياء كثيرة.. دون أن أدري لم يكن صوت إشعار وصول الحوالة المالية الأولى مجرد نغمة إلكترونية عابرة، بل كان أشبه بقرع طبول الحرب تعلن انتصاراً أولياً في معركة كنت أخوضها وحيداً. حدقتُ في الشاشة طويلاً، غير مصدق لتلك الأرقام التي استقرت في رصيدي. كانت أرقاماً حقيقية، قابلة للصرف، قابلة لأن تتحول إلى طعام، وملابس، وكرامة.

سرت قشعريرة لذيذة في جسدي. لم تكن الفرحة بالمال ذاته، بل بما يمثله. كان ذلك المبلغ البسيط هو أول اعتراف من العالم بوجودي،

أول دليل ملموس على أنني لست "عالة" أو "طفلاً متروكاً"، بل
فاعل ومؤثر.

بدأت العجلة تدور بسرعة لم أتوقعها. تحولت غرفتي الصغيرة، التي
طالما شهدت انكساراتي ودموعي المكتومة، إلى غرفة عمليات لا
تهداً. كنت أجلس خلف شاشتي كقائد عسكري يحرك جيوشاً غير
مرئية. قنوات تفتح، ومجموعات تدار، وصفقات تُعقد بكلمات
مقتضبة. اكتشفتُ أن لدي موهبة فطرية في هذا العالم الرقمي؛ كنت
أجيد قراءة ما يريده الناس، وأعرف كيف أصيغ العبارات التي
تجذبهم، وكيف أحول الفضول إلى أرباح.

مع كل مبلغ جديد يضاف إلى رصيدي، كانت ثقتي بنفسي تتضخم.
بدأت أمشي في الشارع برأس مرفوع، أنظر إلى الناس نظرة
مختلفة. لم أعد أرى نفسي ذلك الشاب الذي يحتاج إلى شفقة أحد أو
مساعدة أحد. كنت أشعر أنني أملك سراً كبيراً، قوة خفية تميزني
عن كل هؤلاء السائرين نياماً في روتينهم اليومي.

بدأت الأموال تتراكم. لم تكن ثروة طائلة في البداية، لكنها كانت
كافية لتغير موازين القوى في عقلي. بدأت أشتري لأمي أشياء لم
تطلبها، أملاً الثلاجة بأصناف لم نعتد عليها، وأضع المال في يدها
بزهو، مراقباً نظرة الدهشة والفخر الممزوج بالقلق في عينيها.
من أين لك هذا يا بني؟" كانت تسأل بخوف الأم الفطري "

من شغلي يا أمي.. التجارة الإلكترونية، ده المستقبل"، كنت " أجيبها بثقة تنهي النقاش، دون أن أخوض في التفاصيل المعقدة التي لن تفهمها، والتي كنت أفضل إبقاءها في الظل

وفي غمرة هذا الصعود، بدأ طيف أبي يتلاشى، أو هكذا توهمت. لم أعد أشعر بالحاجة الملحة للاتصال به أو استجدائه. "ماذا سيعطيني؟ المال؟ أنا أصنعه الآن. الحماية؟ أنا أحمي نفسي". تحول الألم القديم إلى نوع من التكبر. صرت أحدث نفسي في المرآة: "أنا أفضل منه. هو هرب من المسؤولية لأنه ضعيف، أما أنا فبقيت،". وحمّلت الحمل، وها أنا ذا أنجح

كان المال هو لغتي الجديدة، وسلاحي الذي شهرته في وجه الماضي. شعرت بنوع من التخدير اللذيذ؛ فالأرقام المتزايدة كانت تسد الفراغات العاطفية، والنجاح السريع كان يغطي على ضجيج الأسئلة الوجودية

مرت الأشهر، وتحول العمل إلى إدمان. كنت أنام ساعات قليلة، وأصحو مفزوعاً لأتفقد هاتفي، خائفاً من أن يختفي هذا العالم فجأة كما ظهر. كنت في سباق مع الزمن، أريد أن أجمع أكبر قدر ممكن، وكأني أنني سداً أمام طوفان مجهول

لم أكن أدري حينها أنني كنت أبني قصرًا من الرمال على شاطئ هائج، وأن شعور القوة الذي تملكني لم يكن سوى خدر مؤقت يسبق

العاصفة. كنت أظن أنني ملكت الدنيا، ولم ألاحظ أنني كنت أفقد نفسي شيئاً فشيئاً، وأن الفجوة بيني وبين الواقع كانت تتسع مع كل جنبيه أكسبه

في تلك الصبيحة الباردة من شهر نوفمبر، وقفت أمام المرآة أتأمل وجهي. لقد تغيرت الملامح؛ اختفت تلك الاستدارة الطفولية، وحل مكانها خطوط أكثر حدة وتحديداً. لم يكن التغير في وجهي فحسب، بل في روعي أيضاً. نظرت إلى عيني، فرأيت فيهما بريقاً غريباً لم أعهده من قبل، بريقاً يخلط بين الجرأة والقسوة

كان هذا اليوم هو اليوم الذي قررت فيه أن أخلع عباءة "الابن المنتظر" للأبد. لقد سئمت من دور الضحية، سئمت من انتظار الأب الغائب، ومن نظرات الشفقة في عيون الأقارب والجيران. قررت أن أكون أنا الأب لنفسه، والأخ، والصديق

جلست مع أمي على مائدة الإفطار، وكانت تنظر إليّ بقلقها المعتاد

"مالك يا معتز؟ شكلك مش عاجبني بقالك يومين"

ابتسمت لها ابتسامة هادئة ومطمئنة: "أبدأ يا أمي، أنا بس بفكر في الشغل.. الدنيا بتتفتح قدامي

"الشغل ده واخد عقلك يا ابني، خاف على دراستك"

"متقلقيش، أنا عارف بعمل إيه"

كانت نبرتي حاسمة، نبرة رجل يعرف طريقه. لم أكن أريد أن ألقها بتفاصيل صراعاتي الداخلية، ولا بحجم المخاطر التي كنت على وشك الدخول فيها في عالمي الرقمي الجديد. كنت أريدها أن تظل في أمان جهلها، بينما أخوض أنا حروبي الصغيرة بصمت.

في ذلك اليوم، اتخذت قراراً مصيرياً. سحبت مبلغاً كبيراً من رصيدي، وتوجهت إلى أحد المحلات الشهيرة. اشتريت لنفسى ملابس جديدة، أنيقة وغالية الثمن. لم يكن ترفاً، بل كان إعلاناً. كنت أريد أن يرى العالم "معتز" الجديد، الشاب الناجح، المستقل، الذي لا يحتاج لأحد.

وعندما عدت إلى البيت، وقفت في وسط الصالة، وناديت أمي بصوت مرتفع. خرجت بسرعة، والخوف يسبق خطواتها.

"في إيه يا معتز؟ حصل حاجة؟"

.أخرجت رزمة من المال وضعتها في يدها بقوة.

خدي يا أمي، ده ليكي. هاتي اللي نفسك فيه، ومتشيليش هم حاجة "تاني طول ما أنا عايش

نظرت إلى المال بذهول، ثم إليّ، واغرورقت عيناها بالدموع. لم تكن دموع فرح فقط، بل دموع خوف ورهبة من هذا التحول المفاجئ. ضمتني بقوة، وسمعت دقات قلبها المتسارعة. في تلك اللحظة، شعرت بأنني "رجل البيت" حقاً. لقد ملأت الفراغ، أو هكذا خُيل إليّ.

لكن، في المساء، وعندما خلت غرفتي عليّ، شعرت بوخزة ألم مباغته. لقد انتصرت، نعم، لكن الانتصار كان بارداً. لقد أصبحت قوياً، لكن القوة كانت موحشة. نظرت إلى الهاتف، وتذكرت رقم والدي الذي حفظته عن ظهر قلب. ترددت لحظة، ثم حذفته من ذاكرتي ومن الهاتف.

وداعاً يا أبي"، همست في الظلام. "لن انتظرِكَ بعد الآن. لقد مات " الطفل الذي كنت تتركه خلفك، وولد مكانه رجل لن يرحم ضعفه، ولن يرحم العالم إذا وقف في وجهه.

أطفأت النور، واستلقيت على فراشي، وعقلي يضج بخطط وأرقام وطموحات لا سقف لها. كنت أظن أنني أغلقت صفحة الماضي، ولم أكن أعلم أن الماضي لا يموت، بل يختبئ في الزوايا المظلمة، ينتظر لحظة غفلة ليعاود الظهور بشكل أقسى وأعنف.

كانت هذه هي الليلة التي ودعت فيها براءتي، واستقبلت فيها "معتز" رجل الأعمال الصغير.. والمغرور

لم يعد هاتفي مجرد أداة اتصال، بل تحول إلى بوابة سحرية تشبه تلك التي نقرأ عنها في الأساطير، بوابة تفصل بين عالمين: عالمي الواقعي الباهت المليء بالانتظار والخذلان، وعالم "التليجرام" الأزرق، المتسارع، الصاخب، والمكتظ بالفرص.

في هذا العالم، لا يهم من تكون، ولا ابن من أنت. لا أحد يسألك عن شهادتك الجامعية أو عن والدك الغائب. العملة الوحيدة المعترف بها هنا هي "الذكاء" و"السرعة". دخلتُ هذا السرداب الرقمي بحذر في البداية، كالقط الذي يتلمس طريقه في زقاق مظلم، لكن سرعان ما ألفت العتمة، وبدأت أرى بوضوح ما يعجز الآخرون عن رؤيته.

اكتشفت أن خلف واجهة الدردشات البسيطة، تدور رحى اقتصاد كامل غير مرئي. قنوات تباع خدمات التسويق، بوتات تبرمج لتقوم بمهام معقدة في ثوانٍ، ومجتمعات مغلقة تتبادل أسرار الربح من الهواء. كانت "القنوات" هي العقارات الجديدة، و"المشتركون" هم العملة الصعبة.

بدأت أتعلم لغة هذا القوم. عرفت معنى "الترافيك"، و"السيام"، و"الترويج العكسي". كنت أقضي ساعات طويلة أراقب كبار "المسوقين" في هذا الفضاء، أحلل تحركاتهم، كيف يكتبون إعلاناتهم، وكيف يصطادون الزبائن بكلمات منمقة ووعود براقية. لم أكن مجرد مقلد، بل كنت تلميذاً نجيباً يطمح للتفوق على أساتذته.

قررت أن يكون لي مشروعني الخاص. أنشأت أول قناة لي، وبدأت أقدم خدمات الوساطة الرقمية والتصميم البسيط. كانت البداية بطيئة، تشبه دحرجت صخرة صعوداً إلى الجبل. كنت أسهر حتى الفجر أرسل الروابط في المجموعات، وأدخل في نقاشات لا تنتهي لإقناع عميل واحد بدفع بضعة جنيهات.

لكن السحر الحقيقي بدأ عندما اكتشفت "الثغرات". ليس ثغرات برمجية بالمعنى الحرفي، بل ثغرات في احتياجات الناس. أدركت أن الجميع يبحث عن "السهولة" و"الشهرة" و"المال السريع". فبدأت أبيع لهم الأدوات التي توهمهم بتحقيق ذلك.

تحولت غرفتي إلى مركز عمليات لا يهدأ. صوت إشعارات "التليجرام" المتلاحقة "بينج.. بينج.. بينج" أصبح الموسيقى الوحيدة التي تطربني، أجمل من أي سيمفونية، وأصدق من أي وعد بشري. كل رنة كانت تعني عميلاً جديداً، أو صفقة تمت، أو مالاً دخل المحفظة.

انعزلت تماماً عن أصدقاء المدرسة. كانوا يتصلون بي للخروج للعب الكرة أو التسكع على النواصي، وكنت أتججج بالمرض أو الدراسة. في الحقيقة، كنت أراهم "صغاراً" جداً. عن ماذا سأحدثهم؟ عن مصروفهم اليومي الذي لا يتجاوز عشرة جنيهات؟ أنا الآن أصنع في الساعة الواحدة ما يجمعونه في شهر. شعرت بمسافة ضوئية تفصلني عن جيلي، وكأني كبرت عشرين عاماً في بضعة أسابيع.

أمي كانت ترقبني من بعيد، تارة بعين الرضا لأنني "هادئ وفي حالي"، وتارة بعين القلق من هذا الانكباب المفرط على الشاشة. كانت تدخل عليّ الغرفة أحياناً وأنا غارق في ضوء الشاشة الأزرق، وجهي شاحب وعياني محاطتان بهالات سوداء، وتقول:

"يا ابني ريح عينك شوية.. الصحة أهم من الفلوس"

كنت أبتسم لها ابتسامة مقتضبة وأقول: "أنا برتاح كده يا أمي.. ده مستقبلي"

لم تكن تعلم أنني لم أعد أبحث عن المستقبل، بل كنت أهرب من الماضي. كان انغماسي في "التليجرام" هو مخدري الخاص، الطريقة الوحيدة لإسكات الصوت الذي يهمس في أعماقي بأنني... "ناقص".

وفي ليلة، بينما كنت أراجع أرقام الأسبوع، أدركت أنني لم أعد مجرد هاوي. لقد أصبحت "لاعباً" في السوق. بدأت أسماء القنوات الكبيرة تطلب التعاون معي. شعرت بنشوة القوة تسري في عروقي. هذا العالم الافتراضي الذي صنعه من العدم أصبح حقيقياً أكثر من الواقع، وأصبحت أنا ملكه المتوج، الذي يحرك خيوطه بلمسة إصبع. كان صوت مدرس الرياضيات رتيباً وهو يشرح معادلة معقدة على السبورة، صوته يرتفع وينخفض بنغمة منومة جعلت رؤوس الطلاب تترنح من النعاس. كنت أجلس في مقعدي المعتاد في الصف الخلفي، لكن عقلي كان في مكان آخر تماماً، أبعد بالآلاف الأميال عن هذا الفصل الضيق وعن رائحة الطباشير الخانقة.

اهتز الهاتف في جيبي اهتزازة خفيفة، ثم تلتها أخرى. كانت تلك الاهتزازات بمثابة شفرة سرية لا يفهمها غيري. أخرجت الهاتف بحذر، وخفيته بين صفحات الكتاب المفتوح. أضاءت الشاشة لثانية

واحدة، وكانت كافية لأقرأ الرسالة: "تم استلام الدفعة: 300 دولار".

ابتسمت ابتسامة جانبية ساخرة. ثلاثمائة دولار.. في الوقت الذي كان فيه هذا المدرس يصرخ فينا بأن "المستقبل ضائع" إذا لم نحفظ هذه المعادلة، كنت أنا قد كسبت ما يعادل راتبه الشهري وربما أكثر، وأنا جالس في مكاني دون أن أحرك ساكناً

نظرت إليه وهو يمسح العرق عن جبينه، ببدلته القديمة وحذائه الذي نال منه الزمن، وشعرت بشفقة ممزوجة باحتقار غريب. لم أكن أحتقره لشخصه، بل لنموذجه. كان يمثل الطريق التقليدي الذي يريدون حشري فيه: ادرس، اجتهد، توظف، وانتظر الراتب في أول الشهر لتدفع ديونك. كنت أرى هذا الطريق فخاً، وكنت أرى نفسي الناجي الوحيد الذي وجد المخرج السري

"!معتز! ركز معايا وسيب اللي في إيدك"

جاء صوته الحاد ليقطع حبل أفكارني. التفتت إليه الرؤوس، وحاول بعض الزملاء كتم ضحكاتهم

رفعت رأسي ببطء، ونظرت في عينيه مباشرة. لم أشعر بالخوف أو الخجل كما كان يحدث سابقاً. كان في داخلي وحش صغير ينمو، وحش يتغذى على الأرصدة البنكية

قلت بهدوء مستفز: "مركز يا أستاذ.. بس الأرقام اللي على السبورة". دي مش هي الأرقام اللي تههم

تطاير الشرر من عينيه وطرمني خارج الفصل.

خرجتُ، ولم أشعر بالندم للحظة. مشيت في ممر المدرسة الطويل، وكان صوت خطواتي يبدو لي مختلفاً. لم تكن خطوات تلميذ مطرود، بل خطوات شريك، أو مدير، أو رجل أعمال في زي طالب

في تلك الفترة، بدأ المال يغير كيمياء روعي. لم يعد مجرد وسيلة للشراء، بل أصبح مرآة أرى فيها نفسي "عملاقاً". كنت أمشي في الشارع وأنظر للناس، للموظفين المتكدسين في المواصلات، وللباعة الجائلين، وأشعر بتميز مخيف. "أنا لست مثلهم"، كانت هذه العبارة تتردد في رأسي كتعويذة

بدأت أشتري ملابس من ماركات لم أكن أجروء على دخول محلاتها. اشتريت أحدث هاتف، وساعة ذكية، وحذاءً رياضياً باهظ الثمن. كنت أرتمي هذه الأشياء كدروع، كل قطعة منها تصرخ في وجهي. "العالم: أنا موجود، وأنا قوي

حتى في البيت، تغيرت نبرتي. لم أعد أقبل الملاحظات بصدر رحب. عندما كانت أمي تسألني عن تأخري أو عن دراستي، كنت أجيبها بضيق: "أنا عارف مصلحتي كويس يا أمي، ومحدثش ليه دعوة بيا"

كانت تنظر إليّ بحزن، وتصمت. كانت تدرك بحسها أن ابنها يتغير، وأن هناك قسوة جديدة تكسو ملامحه، لكنها لم تكن تعرف أن المال هو الذي يبني هذا الجدار الجليدي بيننا.

بدأتُ أصدق الوهم. صدقتُ أنني عبقرية، وأني كسرت شفرة الحياة. نسيت أن التليجرام عالم متقلب، وأن ما يأتي بسهولة قد يذهب بسهولة. كان الغرور يعميني عن رؤية الحافة التي أقف عليها. كنت أظن أنني أملك العالم في جيبتي، ولم أكن أدرك أنني كنت مجرد ورقة في مهب ريح رقمية لا ترحم.

في تلك الليالي، كنت أنظر للسقف وأتخيل والدي. كنت أتخيله وهو يراني الآن، بسيارتي التي أنوي شراءها، وبملابسي الفاخرة. كنت أتخيل نظرة الندم في عينيه، وكان هذا الخيال هو وقودي. لم أكن أعلم أنني كنت أركض بسرعة جنونية نحو حائط مسدود، وأن الارتطام سيكون مؤلماً بقدر ارتفاعي.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة فجراً، والكون كله يغرق في سكون عميق، إلا قلبي الذي كان يقرع كالطبول في ساحة معركة انتهت لتوها بالنصر. جلستُ على طرف سريري، والهاتف بين يديّ كأنه جمر متقد، وعينا مسمرتان على الرقم الذي يلعب في تطبيق البنك.

خمسة أصفار.. وأمامها الرقم خمسة

نصف مليون جنيه

أعدتُ قراءة الرقم عشرات المرات. مسحتُ الشاشة بقميصي لأتأكد أنني لا أحلم، وأن الغبار لم يصنع وهماً بصرياً. لكن الرقم ظل ثابتاً، راسخاً، حقيقياً كحقيقة وجودي. نصف مليون جنيه مصري استقرت في حساب شاب لم يتجاوز عمره العشرين عاماً، شاب كان حتى وقت قريب يقف في طابور المقصف المدرسي ويحسب العملات المعدنية في جيبه ليشتري شطيرة.

تنفستُ بعمق، وكأنني أستنشق هواءً مختلفاً عن الذي يتنفسه البشر العاديون. هواءً مشبعاً برائحة الحرية والسيطرة. قمتُ ومشيتُ في الغرفة الضيقة ذهاباً وإياباً، شعرت أن الجدران تضيق عليّ، وأن هذا السقف المنخفض لا يليق بـ "مليونير صغير" مثلي.

فتحتُ النافذة المظلة على الشارع الصامت. كانت أعمدة الإنارة تلمع بضوء خافت، والقطط تبحث عن طعام في القمامة. نظرتُ إلى البيوت المجاورة، إلى النوافذ المغلقة حيث ينام الناس ليصحوا على أعمالهم الروتينية، ورواتبهم المحدودة، وديونهم التي لا تنتهي. شعرتُ بشفقة ممزوجة بالتكبر. "ناموا.. ناموا واحلموا بالستر، أما أنا فقد اشتريت الأمان نقداً".

تسللتُ خارج الغرفة ووقفتُ أمام باب غرفة أمي الموارب. كانت نائمة، وتصدر صوتاً خفيفاً مع كل زفير. تذكرتُ خوفها الدائم،

وتوفيرها للقرش، وحرمانها لنفسها من أبسط المتع. ابتسمت في
الظلام، ومددت يدي وكأني ألمس هالتها عن بعد
". لا تخافي بعد اليوم يا أمي.. ابنك أصبح جبلاً"

عدتُ إلى غرفتي، واستلقيتُ على السرير، لكن النوم جافاني. كيف
ينام من يملك العالم؟ بدأتُ أرسم خطأً لا نهائية. سأشتري شقة
تليق بنا في حي راقٍ. سأشتري سيارةً فارهةً أمرُّ بها أمام مدرسة
الثانوية القديمة. سأؤسس شركة حقيقية وأوظف فيها أولئك الذين
سخرُوا من طموحي يوماً

كان الشعور بالقوة مخادعاً ولذيذاً. شعرتُ أنني أمسكت بزمام
الزمن، وأني قادر على ليّ عنق الظروف. نسيْتُ تماماً أن هذا المال
جاء من فضاء افتراضي، ومن صفقات سريعة في "تليجرام" قد
تتبخر في لحظة. كنتُ أرى هذا الرقم "أساساً" صلباً، ولم أره
".فقاعة"

تذكرتُ والدي. تمنيتُ لو كان يرى هذا الرقم الآن. تمنيتُ لو أستطيع
أن أرسل له صورة الشاشة فقط، دون أي كلمة. صورة تقول له:
"انظر.. هذا ما فعله الطفل الذي تركته. لقد جمعتُ في أربع سنوات
ما لم تجمعه أنت في عمرك كله". كان هذا الانتقام الصامت هو
الألذ. لقد تفوقتُ عليه، وهزمته في ملعبه.. ملعب الحياة وتأمين
المستقبل.

أغمضتُ عيني، وتخيَّلتُ المستقبلَ بساطاً أحمر يمتد أمامي بلا نهاية. رأيتُ النصف مليون يصبح مليوناً، والمليون عشرة. لم يكن هناك سقف لطموحي، ولم يكن هناك صوت للعقل يحذرنِي من أن الصعود السريع غالباً ما يتبعه سقوطٌ مدوٍ.

نمتُ في تلك الليلة وأنا أحتضن هاتفي، وكأنه تميمة الحظ التي ستحميني من غدر الأيام، غير مدرك أنني كنت أحتضن السراب، وأن الفجر القادم يحمل معه بداية النهاية لهذا الحلم الوردي لم يكن المال الذي جمعته مجرد أرقام في حساب بنكي، بل تحول في يدي إلى تذكرة دخول لعالم كنت أظنه ممنوعاً عليّ. ومع تضخم الرصيد، تضخمت معه رغبة شرسة في "الامتلاك". كنت أريد أن أشتري كل ما حُرمت منه، وكل ما رأيتُه في أيدي الآخرين وحسدتهم عليه.

أصبحت مراكز التسوق الكبرى وجهتي المفضلة. كنت أدخل المحلات ذات الواجهات الزجاجية البراقة، تلك التي كنت أخشى حتى النظر إليها من الخارج خوفاً من أن يطردني البائعون بنظراتهم. الآن، كنت أدخلها بخطوات واثقة، وأنتقي أعلى القطع دون أن أنظر إلى بطاقة السعر. قمصان حريرية، ساعات باهظة، أحذية رياضية نادرة.. كنت أشتري أكواماً من الأشياء التي لا أحتاجها، فقط لأشعر بلذة القدرة على الدفع.

كانت اللحظة التي يمرر فيها البائع بطاقتي البنكية على الجهاز،
ويصدر ذلك الصوت الرقيق للموافقة، تمنحني نشوة تفوق نشوة
الحب. كانت تلك الصفارة الصغيرة تقول لي: "أنت مقبول هنا.. أنت
"ذو قيمة".

لكن الأمر لم يتوقف عند المقتنيات الشخصية. بدأت أبحث عن
"الصحبة" التي تليق بوضعي الجديد. كنت أدعو معارفي القدامى،
وحتى أولئك الذين لم تكن علاقتي بهم قوية، إلى أفخم المطاعم
والكافيهات. كنت أطلب أغلى الأطباق، وأملأ الطاولة بما لذ وطاب،
وأصر بصوت عالٍ أمام الجميع: "الحساب عندي.. محدش يمد إيد
"في جيبه".

كنت أشترى ضحكاتهم، ونظرات الإعجاب في عيونهم، وكلمات
المديح التي كانوا يكيلونها لي. "معتر باشا"، "معتر الكينج"..
ألقاب جوفاء كنت أعلم في قرارة نفسي أنها مدفوعة الأجر، لكنني
كنت أتعاطاها كالمسكنات لأسكت بها صوت الوحدة القديم. كنت أظن
أنني بمالي أستطيع ترميم صورتي المهزوزة اجتماعياً، وأن أجعل
الجميع ينسى أنني ذلك الولد الذي عاش في ظل أمه

في البيت، كانت أمي تراقب هذا التحول بقلق متزايد. كانت ترى
الأكياس المكدسة في غرفتي، والهدايا التي أغرقها بها، فلا تبتسم
كما كنت أتوقع

:في إحدى الليالي، جلست أمامي ونظرت إليّ بعتاب هادئ

يا بني، النعمة زواله. الفلوس دي تعبت فيها، مينفعش تطيرها في "
".الهوا كده. القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود

رددت عليها بضيق، وأنا أرتب ساعاتي الجديدة في الدرج

أيامنا السودا خلصت يا أمي. أنا بعرف أجيب الفلوس إزاي، واللي "
".يروح يجي غيره عشرة. متشيليش هم واستمتعي بحياتك

الاستمتاع مش بالبذخ يا معتز، الاستمتاع براحة البال. وأنا مش "
".مرتاحة للطريقة دي

تجاهلت كلماتها. اعتبرتها نصائح من زمن ولى، زمن الخوف
والحرص. كنت أرى نفسي "رجل أعمال" عصرياً، يؤمن بأن
"عليك أن تنفق المال لتجلب المال". لكن الحقيقة التي كنت أهرب
منها هي أنني كنت أنفق المال لأجلب "الاحترام"، ولأجلب شعوراً
مزيفاً بالأمان

كلما اشتريت شيئاً جديداً، كانت السعادة تدوم لساعات، وربما دقائق،
ثم يعود ذلك الثقب الأسود في صدري ليتسع من جديد، يطلب المزيد.
كنت كمن يشرب من ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً

لم ألاحظ أن النصف مليون، ذلك الرقم الذي خيل لي أنه جبل لا
يهتز، بدأ يتآكل. كانت المصاريف اليومية، والهدايا، والعزائم،
وسحب الكاش المستمر، تتحت في الجبل ببطء ولكن بثبات. كنت

أقول لنفسي: "سأعوض غداً من التليجرام"، "هناك صفقة جديدة
".ستغطي كل هذا

عشت في فقاعة وردية من الإنكار، محاطاً بأشياء لامعة وأصدقاء
مؤقتين، بينما كانت الأرض تميد من تحتي ببطء، والعاصفة التي
ستقتلع كل هذا كانت تقترب بصمت مرعب

(3)

كان صباحاً مشمساً، وكان الطبيعة نفسها تبتسم لي. استيقظتُ
متأخراً كعادتي في الآونة الأخيرة، مددتُ يدي بتكاسل نحو المنضدة
بجوارِي لألتقط هاتفِي، تلك العادة التي أصبحت طقساً مقدساً لبدء
يومي بتفقد الأرباح التي تجمعت أثناء نومي. كنتُ أذندن لحناً
عشوائياً، وعقلي مشغول بنوع السيارة التي سأذهب لمعاينتها في
المساء.

"فتحتُ عينيّ نصف فتحة، وضغطتُ على أيقونة "تليجرام
عادةً، يستغرق الأمر ثانية واحدة لتظهر القائمة المزدحمة بالرسائل
والأرقام الخضراء. لكن هذه المرة، طال التحميل. ظهرت دائرة
الانتظار تدور وتدور.. ثم توقفت

:ظهرت رسالة مقتضبة، باردة، ومخيفة في منتصف الشاشة

"تم حظر هذا الحساب نظراً لانتهاك شروط الاستخدام"

تجمدتُ في مكاني. ظننتُ أنها مزحة، أو ربما خطأ في الشبكة.
أغلقت التطبيق وأعدت تشغيله. نفس الرسالة
قفزتُ من السرير وكان عقرباً لدغني. حاولت الدخول من الحساب
".الاحتياطي.. "محظور
".الحساب الثالث.. "محظور

بدأت دقائق قلبي تتسارع بشكل جنوني، وشعرت ببرودة تسري في
أطرافي رغم حرارة الجو. هرعْتُ إلى جهاز الكمبيوتر، ويدي
ترتجف وأنا أكتب كلمة المرور بشكل خاطئ مرتين قبل أن يفتح.
دخلتُ على لوحة التحكم الخاصة بالبوتات التي تدير عملي. كانت
الشاشة حمراء بالكامل. كل القنوات توقفت. كل الروابط تعطلت. كل
".الحنفيات" التي كانت تضح المال أغلقت في لحظة واحدة

لا.. لا.. مش ممكن!"، صرختُ بصوت مخنوق"

بدأت أتصل بشركائي في المجموعات الخاصة. لم يرد أحد في
البداية، ثم بدأت الرسائل تنهال في المجموعات البديلة كالسيل
الجارف. الجميع يصرخ، الجميع يولول

تحديث أمني جديد ضرب الكل"، كتب أحدهم"

الثغرة اتقفلت نهائي"، رد آخر"

السيرفرات كلها وقعت.. مفيش رجوع"، كانت هذه الرسالة هي "
الضربة القاضية

جلستُ على الكرسي، وشعرت أن الغرفة تدور بي. لم يكن مجرد عطل فني يمكن إصلاحه، بل كانت "نهاية". الأربعة سنوات التي بنيتها طوبة طوبة، انهارت في تحديث واحد. المنظومة التي كنت أظنها قلعة حصينة، تبين أنها كانت بيتاً من ورق، ونفخة واحدة من أصحاب المنصة كانت كفيلاً بنسفها.

حاولتُ التفكير في حل. "لا بد من وجود طريقة.. لا بد من وجود التفاف". قضيتُ الساعات التالية أجري اتصالات هستيرية، أبحث في المنتديات الروسية والأجنبية، أدفع المال لمن يدعي أنه يملك ".حلاً. لكن كل الأبواب كانت موصدة. لقد انتهى "الموسم

نظرتُ إلى هاتفي الذي كان قبل ساعات مصدر قوتي، فبدالي الآن كقطعة خردة لا قيمة لها. الصمت الذي حل على جهازي كان مرعباً. لا إشعارات، لا أرقام تتزايد، لا صوت رنين الأموال. فقط شاشة سوداء تعكس وجهي الشاحب والمرعوب.

تذكرتُ فجأة التزاماتي. السيارة التي وعدت بشرائها، الملابس التي طلبتها "أونلاين" ولم أدفع ثمنها بعد، المصاريف التي رفعت سقفها إلى السماء. نظرتُ إلى رصيدي في البنك. النصف مليون ما زال هناك، لكنه رقم "ميت". لن يزيد بعد اليوم جنيهاً واحداً. بل سيبدأ في التناقص.

شعرتُ بغثيان. لم أكن مستعداً لهذا. كنتُ قد برمجتُ حياتي وتفكيري
.على أن هذا النهر لا ينضب. لم أحسب حساب الجفاف
دخلتُ أمي الغرفة فجأة، تحمل صينية الغداء. رأت وجهي المتقع
ولوني المخطوف
"مالك يا معتز؟ فيك حاجة؟"

نظرتُ إليها، وودتُ لو أصرخ وأخبرها أن الكارثة وقعت، وأن
"الباشا" الذي تراه أمامها قد عاد عاطلاً في ثانية واحدة. لكن
كبريائي منعي. كيف أعترف بالهزيمة وأنا الذي كنت أتباهى بذكائي
قبل قليل؟

بلعتُ ريقِي بصعوبة، وحاولتُ رسم ابتسامة مهزوزة لم تصل
لعيوني:

"مفيش يا أمي.. ضغط شغل بس.. سيبيني لوحدي شوية"

خرجتُ وهي غير مقتنعة، وتركتني وحيداً مع الكابوس
نظرتُ إلى السقف، وشعرت لأول مرة منذ سنوات بضالة حجمي. لقد
سحبت "التليجرام" البساط من تحتي، وتركتني معلقاً في الهواء بلا
مظلة.

كان هذا هو اليوم الذي توقف فيه الزمن، وبدأ فيه العد التنازلي
للكارثة الحقيقية: كيف سأعيش بمستوى "المليونير" وأنا لم أعد
أملك سوى "الذكريات"؟

مرت الأيام الثلاثة الأولى بعد توقف العمل وكأنها جنازة صامتة. كنتُ أجلس في غرفتي، أهدق في الجدران التي بدأت تضيق عليّ يوماً بعد يوم. اختفى رنين الإشعارات، واختفت معه رسائل المدح والطلبات، وبقيت وحدي مع الحقيقة العارية التي كنت أهرب منها. "لسنوات: "أنا مجرد شاب عاطل عن العمل، بلا شهادة، وبلا سند

قررتُ في لحظة شجاعة يائسة أن أقوم بجرد ما تبقى. فتحتُ تطبيق البنك، وكانت يدي ترتعش وأنا أنتظر ظهور الرصيد. كنتُ أمني النفس بأنني ما زلت أملك الكثير، وأن النصف مليون جنيه ما زالت تحميني.

ظهر الرقم.. وكان صدمة

لم يكن صفراً، لكنه كان بعيداً كل البعد عما كنت أتخيله. "مئة وعشرون ألفاً فقط؟!". صرختُ بصوت مكتوم
أين ذهب الباقي؟ أين تبخرت ثلاثمائة وثمانون ألف جنيه في أقل من عام؟

بدأتُ أستعرض سجل المعاملات البنكية، وكان الشريط يمر أمام عيني كشريط سينمائي لفيلم رعب

خصم: متجر ملابس (مبلغ ضخ)

خصم: مطعم فاخر (عزومة للأصدقاء)

.خصم: هاتف جديد (أحدث إصدار)

.خصم: ساعة ذكية

.خصم: حجز شاليه في الساحل

توالت الخصومات، سطر وراء سطر، وكلها كانت أشياء استهلاكية، أشياء أكلها الزمن أو لبسها الغبار. نظرتُ حولي في الغرفة. رأيتُ أكواماً من الملابس الملقاة بإهمال، أحذية لم ألبسها سوى مرة "واحدة، أجهزة إلكترونية مكدسة. كانت هذه هي ثروتي.. "خردة

لم أشتري شقة تأويني أنا وأمي. لم أشتري قطعة أرض. لم أضع مليماً واحداً في مشروع حقيقي على أرض الواقع. لم أشتري ذهباً للزمن. كل ما فعلته هو أنني اشتريت "مظاهر". اشتريت نظرات إعجاب مؤقتة من ناس لن ينفعوني الآن بشيء. اشتريت لحظات "غرور عابرة لأثبت لنفسي ولأبي الغائب أنني "مهم

جلستُ على الأرض، وأمسكتُ بقميص حريري غالي الثمن كنت قد اشتريته للتباهي به في حفل عيد ميلاد أحد المعارف. تحسستُ قماشه الناعم، وشعرتُ برغبة في تمزيقه. هذا القميص يساوي

مصارييف شهر كامل في بيت أمي، لكنه الآن لا يساوي شيئاً. لا
يمكنني أكله، ولا يمكنني العيش فيه

دخلتُ في نوبة من جلد الذات. كيف كنتُ بهذا الغباء؟ كيف سمحتُ
للنشوة أن تعميني؟ تذكرتُ نصائح أمي التي كنتُ أسخر منها:
"القرش الأبيض لليوم الأسود". ها قد جاء اليوم الأسود، والقرش
"الأبيض قد صُرف على" المنظرة

سمعتُ صوت أمي في المطبخ، تعد الطعام برائحة التقلية المعتادة.
شعرتُ بخزي لا يوصف. كنتُ قد وعدتها بأنني سأعوضها، وأنني
سأجعلها تعيش كالملكات. وبدلاً من ذلك، عشتُ أنا كالمك المزييف،
وتركتها هي في نفس المطبخ الضيق، بنفس الأواني القديمة. لقد
خذلتها، تماماً كما خذلنا أبي، ولكن بطريقة مختلفة. هو خذلنا
بالغياب، وأنا خذلتها بالأنانية والغياب

نظرتُ في المرأة، فلم أرَ "رجل الأعمال الشاب" الذي كنتُ أتوهمه.
رأيتُ طفلاً كبيراً، عابثاً، أضاع فرصة العمر التي قد لا تتكرر. كان
النصف مليون جنيهه فرصة لبداية حياة كريمة، لفتح مشروع حقيقي،
لتأمين مستقبل. لكنني حرقتها كمن يشعل سيجارة بورقة نقدية

شعرتُ بدموع حارة تتجمع في عيني، ليست دموع حزن، بل دموع
قهرة. قهر الرجال الذين يدركون خطأهم بعد فوات الأوان

ماذا سأفعل الآن؟"، سألتُ نفسي بصوت مسموع"

المتبقي يكفي لعدة أشهر، ربما سنة إذا اقتصدت. لكن ماذا بعد؟ كيف سأعود للدراسة وأنا الذي تركتها باحتقار؟ كيف سأواجه المجتمع بصفتي "طالباً عادياً" بعد أن كنت "الكينج"؟

كانت تلك اللحظة هي بداية السقوط النفسي الحقيقي. أدركت أن المال لم يغير شيئاً في جوهرى، بل كان مجرد طلاء لامع قشرته أول عاصفة، وظهر تحته المعدن الصدئ لنفسى المهزوزة التي لم تشف بعد من جرح الماضي

لم يكن السقوط هو الأسوأ، بل كانت محاولة النهوض الهستيرية هي التي كسرت ظهري. فبدلاً من أن أتقبل الهزيمة وأعيد ترتيب أوراقى بهدوء، تملكنى ذعر الغرقى. كنت مثل الذي سقط في رمال متحركة؛ كلما قاوم بعنف وحاول الركل للصعود، سحبته الرمال إلى الأسفل بسرعة أكبر.

رفض عقلى تصديق أن "الحنفية" أغلقت. أقنعت نفسى أن ما حدث مجرد كبوة، وأنى أذكى من النظام. "لا بد من وجود ثغرة"، رددت هذه الجملة كالمجنون وأنا أجوب منتديات الإنترنت المظلمة بحثاً عن طوق نجاة. كنت أبحث عن أى شخص، أى برنامج، أى "سكريببت" يعيد لى ما فقدته.

وفي قمة يأسى، ظهوروا لى. "تجار الأمل" الذين يقتاتون على جثث الحالمين. وجدتُ شخصاً يدعى امتلاكه "طريقة سرية" لتجاوز

الحظر وإعادة البوتات للعمل، لكن الثمن كان باهظاً. طلب مبلغاً ضخماً، ثلاثين ألف جنيه، تحول فوراً عبر محفظة إلكترونية.

لم أتردد لحظة. كان المبلغ يمثل ربع ما تبقى معي تقريباً، لكنني حسبته بمنطق المقامر لا بمنطق التاجر: "سأدفع الثلاثين، وسأعوضها في يومين من العمل". كانت يدي ترتعش وأنا أضغط زر التحويل، وكأن قلبي كان يعلم ما سيحدث، لكن طمعي كان صوته أعلى.

مرت الساعات بعد التحويل ثقيلة كالجبال. كنت أهدق في الشاشة، أنتظر "الكود" السحري الذي وعدني به. أرسلت رسالة: "أنا حولت". "الفلوس، فين الطريقة؟"

"ظهرت علامة" تمت القراءة.

انتظرت دقيقة.. دقيقتين.. عشر دقائق.

ثم فجأة، اختفت صورة الشخص، واختفى اسمه، وظهرت الرسالة "الملعونة: لا يمكنك مراسلة هذا المستخدم".

حظر.

لقد نصب عليّ ببساطة سادجة، سلمت ما تبقى من دمي لشخص مجهول في الفضاء الإلكتروني. صرختُ صرخة مكتومة، ضربتُ المكتب بقبضتي حتى شعرتُ بألم في عظامي. لم يكن الألم بسبب

المال فقط، بل بسبب الشعور بالاستغفال. أنا "معتز"، الذي كان يظن نفسه ملك هذا العالم، تحول إلى فريسة سهلة في لحظة ضعف.

لم أتعلم الدرس. كان الغضب يعميني. قررت أن أعوض الخسارة فوراً. دخلت في مجال "التداول السريع" الذي كنت أسمع عنه ولا أفقه فيه شيئاً. وضعتُ خمسين ألفاً أخرى في منصة تداول عملات رقمية، بناءً على "توصية" قرأتها في قناة مجانية. السهم صاعد.. فرصة العمر"، هكذا قالوا.

اشتريتُ بكل ثقلي. جلستُ أراقب المؤشر الأخضر وهو يصعد، فقفز. "قلبي فرحاً. "ها أنا أعود.. سأعوض كل شيء

لكن السوق، ذلك الوحش الغادر، لا يرحم الجهلاء. في دقائق معدودة، تحول المؤشر إلى الأحمر القاني. هبط السهم هبوطاً حراً، ومعه هبط قلبي إلى كعبي. رأيتُ أموالني تتبخر أمام عيني، الأرقام تتناقص بسرعة مرعبة.

خمسون ألفاً.. أصبحت أربعين.. ثلاثين.. عشرة

بعثُ بخسارة فادحة قبل أن يضيع كل شيء. خرجتُ من التجربة وقد فقدتُ في أسبوع واحد أكثر من نصف ما تبقى معي. المائة وعشرون ألفاً التي كانت حصني الأخير، تآكلت لتصبح مجرد فتات لا يكاد يذكر.

خرجتُ من غرفتي كالميت الحي. كانت أمي جالسة تشاهد التلفاز، نظرت إليّ وفزعت من هيئتي

"يا ساتر يا رب! مالك يا معتز؟ وشك أصفر ليه كده؟"

نظرتُ إليها بعيون زائغة، وحاولتُ الكلام، لكن صوتي خاني. شعرتُ برغبة في البكاء كالأطفال، في الارتواء في حضنها والاعتراف بكل حماقاتي، بأنني ضيعت الأمانة، وبأنني عدتُ إلى نقطة الصفر.. بل تحت الصفر

لكن الكبرياء اللعين، ذلك الورم الخبيث الذي زرعه المال في نفسي،
منعني

قلتُ بصوت مبحوح: "مفيش.. خسارة بسيطة في الشغل
وهعوضاها"

"خسارة إيه يا ابني؟ الفلوس بتروح وتيجي، المهم صحتك"

لم تكن تعرف أن "الفلوس" التي راحت لم تكن مجرد ورق، بل كانت فرصتي الأخيرة للنجاة. دخلتُ الحمام، ووقفتُ تحت الماء البارد بملابسي، أحاول أن أطفئ النار التي تآكل صدري. لقد انتهى الأمر. انتهت اللعبة. وعرفتُ في تلك اللحظة القاسية أن طريق العودة سيكون طويلاً جداً، وأصعب بمراحل من طريق الصعود، لأنني الآن لا أملك حتى "الأمل" الذي بدأت به. انقشع الغبار، وهدأت العاصفة، وبقيت أنا وحدي وسط الخراب

جلستُ على طرف السرير في غرفتي التي كانت قبل أيام تضج بالحياة الوهمية، والآن بدت كقبر بارد. نظرتُ إلى شاشة الكمبيوتر المطفأة، تلك الشاشة السوداء التي كانت نافذتي على العالم، فبدت لي الآن كعين عمياء تحرق في فشلي.

انتهت الرقصة. لم يبقَ في جيبِي سوى فتات من المال، بضعة آلاف لا تكفي لسداد فاتورة كهرباء بضعة أشهر. النصف مليون جنيهه، الحلم الذي لمستَه بيدي، تبخر كأنه لم يكن. لم يتبقَ منه طوبة في جدار، ولا قيراط في أرض، ولا حتى ذكرى طيبة في قلب أحد.

بدأتُ عملية "التصفية". كان عليّ أن أبيع "العابي" لأعيش. حملتُ ساعتِي الذكية، وهاتفِي الاحتياطي، وبعض الملابس التي لم ألبسها، وتوجهتُ إلى محلات وسط البلد.

كانت لحظة انكسار لا تُنسى عندما وقف البائع يقلب ساعتِي الثمينة: باستهتار، ثم يلقيها أمامي على الزجاج قائلاً ببرود: "دي مستعملة يا كابتن.. مش هتجيب ربع تمنها"

حاولتُ المجادلة، حاولتُ الصراخ بأنني اشتريتها بضعف هذا المبلغ، لكن صوتي مات في حلقي.

المستعمل ملوش تمن" .. كانت هذه الجملة تتردد في أذني كحكم " بالإعدام، ليس على الساعة فحسب، بل عليّ أنا أيضاً. أنا أيضاً أصبحت "مستعملاً"، استهلكتنِي التجربة ورمتنِي بنصف قيمتي، بل بلا قيمة.

عدتُ إلى البيت محملاً بمال قليل، وشعور ثقيل بالعار. وضعتُ النقود في الدرج، وأغلقتُ عليه بالمفتاح، وكأني أغلق على جثتي خرجتُ إلى الصالة، فوجدتُ أمي جالسة تسبح على مسبحتها الخشبية القديمة. نظرتُ إليها طويلاً. تلك المرأة التي لم تتغير، لم تبطرها النعمة المؤقتة، ولم يكسرهما زوالها. كانت ثابتة كالنخلة، بينما كنت أنا كورقة خريف تعبت بها الرياح

جلستُ تحت قدميها، ووضعتُ رأسي على ركبتيها كما كنت أفعل وأنا صغير. لم تقل شيئاً، فقط وضعت يدها الدافئة على شعري، ومسحت عليه برفق. كانت يدها خشنة من العمل، لكنها كانت أصدق وأحن من كل الحرير الذي اشتريته

انفجرتُ باكياً. لم أكن أبكي المال الضائع، بل كنت أبكي "معتز" الذي ضاع مني. كنت أبكي السنوات الأربع التي ركضت فيها خلف سراب، والفرص التي أهدرتها، والكبرياء الكاذب الذي عزلني عن العالم.

أنا آسف يا أمي.. ضيعت كل حاجة. " قلتها بصوت مخنوق "

بالدموع

رفعت وجهي بيديها، ونظرت في عينيّ بعمق، وقالت بلهجتها البسيطة الحكيمة:

يا ابني.. الفلوس اللي بتيجي بالساهل بتروح بالساهل. المهم إنك " لسه بخير. اللي يبني مرة يقدر يبني ألف مرة، بس المرة دي ابني " على أساس، مش على رمل

نزلت كلماتها كالماء البارد على روعي المحترقة. "الأساس" .. هذا ما كان ينقصني. كنت أبحث عن القمة قبل أن أبني القاعدة. كنت أريد الثمار قبل أن أزرع البذور.

في تلك الليلة، وقفتُ أمام المرآة للمرة الأخيرة في هذا الفصل من حياتي. مسحتُ دموعي، وغسلتُ وجهي بالماء البارد. نظرتُ إلى "انعكاسي، ورأيتُ شاباً منهكاً، مكسوراً، لكنه "مستيقظ". لقد استيقظتُ من الغيبوبة.

فتحتُ خزانة ملابسي، وأزحتُ القمصان الحريرية والبדلات اللامعة جانباً، وسحبتُ من الخلف صندوقاً قديماً مغطى بالغبار. فتحته، وخرجت منه رائحة الورق القديم. كانت كتبي المدرسية. كتب الثانوية العامة التي تركتها باحتقار قبل عام.

نفضتُ عنها الغبار، ووضعتها على مكتبي مكان الكمبيوتر. أهلاً بكِ من جديد"، همستُ للكتب. "أعرف أن الطريق إليك "صعب، وأنتِ لا تعدين بالثراء السريع، لكنكِ على الأقل.. حقيقية

كانت تلك الليلة هي نهاية "معتر المليونير"، وميلاد "معتر الطالب". قررتُ أن أدخل معركة الثانوية العامة، ليس حباً في الدراسة، بل رغبة في الانتقام من فشلي، ورغبة في بناء ذلك

"الأساس" الذي تحدثت عنه أُمِّي. سأبدأ من الصفر، ولكن هذه المرة، سأصعد السلم درجة درجة، حتى لو تكسرت قدماي كان شهر سبتمبر يطرق الأبواب بنسماته الخريفية التي تحمل معها رائحة المدارس والكتب الجديدة. في الشوارع، كانت المكتبات تزدهم بالطلاب وأولياء الأمور، ضجيج مألوف كنت قد انفصلت عنه لسنوات، متعالياً عليه بفقاعتي الزرقاء. لكنني اليوم، أعود إليه صاغراً، لا كبطل منتصر، بل كجندي عائد من معركة خاسرة، يحاول الاندماج في جيش النظاميين من جديد.

وقفتُ أمام المرآة، أزرق قميصي البسيط. اختفت الساعات الذكية والماركات العالمية، وحل محلها قميص قطني عادي وبنطال جينز عملي. نظرتُ في عيني، فرأيتُ نظرة لم أعدها: نظرة "الجوع". ليس الجوع للمال هذه المرة، بل الجوع لشيء أثمن وأبقى.. الجوع للاحترام الحقيقي.

ثانوية عامة" .. الكلمة التي ترعب البيوت المصرية. كانت بالنسبة " لي طوق النجاة الأخير. قررتُ أن أدخل هذا العام ليس فقط لأنجح، بل لأتفوق. كان هدفي واضحاً ومحددًا: "كلية الآداب". كنتُ أرى فيها ملاذاً لروحي التي أرهقتها الأرقام والحسابات المادية، كنت أريد أن أغوص في الكلمات، في الأدب، في فهم النفس البشرية التي خذلتني وخذلتها.

حملتُ حقيبتني على ظهري، وشعرتُ بثقلها اللذيذ. خرجتُ إلى الشارع، وتوجهتُ إلى أحد مراكز الدروس الخصوصية الشهيرة في منطقتنا. كان الزحام خانقاً. مئات الطلاب يتدافعون، ضحكاتهم عالية، همومهم صغيرة، يتحدثون عن "الموبايلات" و"البلاي ستيشن".

جلستُ في الصف الأخير، منطوياً على نفسي. شعرتُ بغربة شديدة. هؤلاء زملائي في العمر، لكنني كنتُ أشعر أنني أكبرهم بمائة عام. هم ما زالوا يظنون أن الحياة لعبة، وأنا جربتُ أن تبتلعني الحياة ثم تلفظني. كنتُ أنظر لوجوههم البريئة وأقول في سري: "ليتني كنتُ مثلكم، ليتني لم أكبر قبل أواني".

دخل المدرس، رجل وقور بصوت جهوري، وبدأ يشرح درس اللغة العربية. كان يتحدث عن "الإعراب والبناء"، عن الكلمات التي تتغير بتغير موقعها، والكلمات التي تثبت مهما حدث.

سرحتُ في كلامه.. "المبني والمعرب". أنا كنتُ "معرباً" طوال حياتي، أتغير بتغير الظروف، يرفعني المال وينصبني الغرور ويجرني الفشل. تمنيتُ لو أكون "مبنياً"، ثابتاً، لا تهزني رياح التغيير.

"يا كابتن اللي ورا.. سرحان في إيه؟"

جاء صوت المدرس ليوقظني. اتجهت الأنظار إليّ. في الماضي، كنت سأرد بوقاحة، أو أخرج من القاعة غير مبالٍ. لكنني اليوم، ابتلعتُ ريقِي، ووقفتُ باحترام

"أسف يا مستر.. كنت بركز في المعنى"

ضحك بعض الطلاب، لكن المدرس نظر لي نظرة فاحصة، ربما رأى في عينيّ انكساراً لا يليق بطالب في مثل سني، فأوماً برأسه وقال "أقعد وركز.. السنة دي مش لعب"

عدتُ إلى البيت منهكاً، ليس جسدياً بل نفسياً. كان التحول من "سيد قراره" إلى "متلقٍ للأوامر" صعباً على نفسي الأبية. لكنني عندما دخلتُ ورأيتُ أمي تنتظرني بابتسامة واسعة، وكوب عصير ليمون بارد، ذاب كل التعب

. عملت إيه يا بطل؟" سألتني بلهفة"

"الحمد لله يا أمي.. بداية مبشرة"

دخلتُ غرفتي، وأزحتُ كل ما تبقى من آثار "التليجرام" جانباً. وضعتُ الكتب على المكتب، ورتبتها بعناية فائقة. كتاب التاريخ، الجغرافيا، الفلسفة، علم النفس.. كانت هذه أسلحتي الجديدة

جلستُ أمام المكتب، وفتحتُ الكتاب الأول. كانت الصفحة بيضاء، ناصعة، وكأنها تدعوني لكتابة قصة جديدة. أمسكتُ بالقلم، وكتبتُ:
في أعلى الصفحة بخط عريض
".الهدف: كلية الآداب.. البداية من هنا"

لم أكن أعلم حينها أن القدر يخبئ لي خطأً أخرى، وأن "الآداب" قد لا تكون نصيبي، لكنني كنت أعلم يقيناً أنني لن أسمح لنفسي بالسقوط مرة أخرى. سأبني نفسي حجراً حجراً، لكي أكون جديراً بالحياة التي أنتظرها، وجديراً بتلك المرأة التي لا أعرفها بعد، والتي ستأتي يوماً لتشاركني الطريق، ولأكون الأب الذي لم أحظ به لابني.
".المستقبلي "زين"

بدأت المذاكرة، وكانت المعركة قد بدأت حقاً
تحول الليل والنهار في غرفتي إلى نسيج واحد باهت، لا يميزه سوى ضوء المصباح المكتبي الذي أصبح رفيقي الأوحده. كانت "الثانوية العامة" ليست مجرد سنة دراسية، بل كانت "حرب استنزاف" طويلة الأمد، تختبر فيها صلابة أعصابك قبل صلابة ذاكرتك.

تغيرت جغرافية غرفتي تماماً. الحوائط التي كانت خالية، أصبحت تواريخ الآن لوحات سريالية تغطيها الأوراق اللاصقة الملونة الحملة الفرنسية تتجاوز مع نظريات علم النفس، وخرائط تضاريس مصر تتداخل مع قواعد النحو. كان المنظر يبدو فوضوياً لأي شخص

يدخل الغرفة، لكنه كان "فوضى منظمة" في عقلي، خريطة طريق نحو النجاة.

كان التحدي الأكبر ليس في صعوبة المواد، بل في "ترويض عقلي". عقلي الذي اعتاد لسنوات على السرعة، على مكاسب "التليجرام" اللحظية، وعلى تدفق الدوبامين السريع مع كل إشعار، كان الآن يرفض البطء. كان يصرخ ملاً من الجلوس لساعات أمام صفحة واحدة من كتاب التاريخ لحفظ أسباب ثورة 1919. كنت أشعر بأعراض انسحاب حقيقية؛ رغبة ملحة في الإمساك بالهاتف، في الهروب، في البحث عن طريق مختصر.

لكنني كنت أقاوم. كنت أجلس على الكرسي وأربط نفسي به معنوياً. "لن أقوم حتى أنهي هذا الفصل"، كنت أقول لنفسي بصوت مسموع. ومع كل دقيقة تمر، كنت أشعر أنني أنحت في الصخر، أربي عضلة "الصبر" التي ضمرت عندي منذ زمن.

أصبحت القهوة رفيقتي السوداء. لم تكن القهوة "اللاتيه" الفاخرة التي كنت أشتريها من الكافيهات، بل القهوة التركية الثقيلة التي تعدها أمي بصمت وتضعها بجواري. كانت تدخل الغرفة على أطراف أصابعها، تضع الكوب، وترتب الفراش المبعثر، وتلقي نظرة حانية عليّ قبل أن تخرج وتغلق الباب برفق، وكأنها تخشى أن تكسر حبل أفكارني. كنت أسمع تمتمتها بالدعاء خلف الباب: "يارب اجبر بخاطره.. يارب ما تضيع تعبته". كان دعاؤها هو الوقود الذي يحركني عندما تنفذ طاقتي.

مر الشتاء ثقيلاً وبارداً. كنت أجلس ملفوفاً بالبطانية، وأصابع يدي تكاد تتجمد، لكنني كنت أستمر في الكتابة والتلخيص. كنت أكتب "كلية الآداب" على هامش كل صفحة، وكأنها تعويذة سحرية. تخيلت نفسي هناك، طالباً جامعياً مثقفاً، أحمل الكتب والروايات، أناقش الدكاترة، وأكتب قصصاً يقرأها الجميع. كان هذا الحلم هو الدفء الوحيد في ليالي يناير القاسية.

في لحظات الضعف، كان شيطان اليأس يهمس لي: "وماذا لو فشلت؟ ماذا لو ضاع هذا التعب هباءً؟ ستكون خاسراً مرتين؛ مرة في المال ومرة في التعليم". كانت هذه الأفكار السوداوية تهاجمني في ساعات الفجر الأولى، عندما يكون العقل منهكاً والجسد يصرخ طلباً للراحة.

"لكنني كنت أواجهها بصورة واحدة: صورة "زين". نعم، لم أكن أعرف اسمه حينها، ولا أعرف من ستكون أمه، لكنني كنت أتخيل "ابناً" لي في المستقبل. كنت أقول لنفسي: "يجب أن أنجح لكي لا أكون أباً فاشلاً مثله. يجب أن يكون لي حكاية فخر أرويها لابني، لا حكاية هروب". كانت رغبتني في أن أكون "الأب الذي لم أخطأ به" هي المحرك الخفي لكل هذا العناد.

بدأت ملامحي تتغير مرة أخرى. الهالات السوداء تحت عيني أصبحت أعمق، ووجهي أصبح أكثر شحوباً، لكن نظرة "التوهان"

اختفت، وحلت محلها نظرة تركيز حادة. لقد تحولت من شاب عابث
.يبحث عن المتعة، إلى رجل يحمل قضية

انتهى الفصل الدراسي الأول، وبدأ العد التنازلي للامتحانات النهائية.
زاد الضغط، وزاد السهر، وتحولت حياتي إلى جدول زمني صارم لا
يرحم. النوم أصبح رفاهية، والأكل مجرد وقود، والأصدقاء ذكرى
بعيدة.

كنتُ في معزل عن العالم، لكنني كنتُ أبني عالمي الجديد. كل معلومة
أحفظها كانت طوبى، وكل مسألة أحلها كانت درجة في سلم الصعود.
لم أكن أعلم أنني أصعد نحو "صدمة"، وأن القدر يخبئ لي في
نهاية هذا السلم باباً لم أكن أريد فتحه، لكنه الباب الذي سيقودني،
في النهاية، إلى "آية" وإلى حياتي الحقيقية

مع مرور الأيام، تحول هدفي من مجرد "النجاح" في الثانوية العامة
إلى "شغف" محدد. لم أكن أرغب في أي كلية قمة والسلام، لم
تستهوني الهندسة بأرقامها الجافة، ولا الطب بمشاهدته الدموية. كان
قلبي يميل حيث تميل الكلمات. اكتشفتُ في عمرة المذاكرة أنني لا
أرتاح إلا بين سطور اللغة العربية، وفلسفة المنطق، وعمق التاريخ.

كلية الآداب" .. كانت هذه الكلمة تلمع في ذهني كمنارة وسط بحر "
هانج.

بدأتُ أبحث عنها، أقرأ عن أقسامها، وعن العظماء الذين تخرجوا
فيها. طه حسين، نجيب محفوظ.. أسماء رنانة صنعت وعي الأمة.

سألت نفسي: "لماذا لا أكون منهم؟". أنا أملك الوجد الذي يصنع الكتاب، وأملك التجربة التي تصقل الموهبة.

تحولت كراساتي الدراسية إلى مسودات لروايات لم تكتمل. كنتُ أسرق دقائق من وقت المذاكرة لأكتب خواطر سريعة، أفرغ فيها شحنة الغضب والحزن التي تراكمت داخلي. اكتشفتُ أن الكتابة هي العلاج الوحيد الذي لا يحتاج لمال، وأن الورقة هي الصديق الوحيد الذي لا يقاطعك ولا يحكم عليك.

في أحد المساءات، وبينما كانت أمي تضع كوب الشاي بجواري، نظرتُ إليها وعيني تلمع ببريق جديد:

أنا قررت يا أمي.. أنا عاوز أدخل آداب قسم لغة عربية أو إعلام.. "

"عاوز أكتب

نظرت إليّ باستغراب، فهي كباقي الأمهات كانت تحلم بلقب "دكتور" أو "مهندس" ليعوضها عن شقاء السنين

آداب يا معتز؟ طب شد حيلك لمجموع كبير وأدخل حاجة تضمن "

"لك وظيفة

ابتسمتُ بثقة: "الوظيفة مش كل حاجة. أنا عاوز أكون حاجة كبيرة، حاجة الناس تقرأ لها وتتأثر بيها. أنا عندي حكايات كتير عاوز

"أحكيها

لم تقتنع تماماً، لكنها دعت لي: "ربنا يكتبك اللي فيه الخير وينوك
".اللي في بالك

أصبح "حلم الآداب" هو المحرك الذي يدفعني للاستيقاظ في البرد
القارس قبل الفجر. كنتُ أضع صورة مبنى جامعة عين شمس
العريق أمامي على المكتب، وأتخيل نفسي أمشي في ممراتها، أحمل
كتبي، وأناقش الأساتذة في الأدب والنقد. كنتُ أرى في هذه الكلية
"صك الغفران" عن سنوات التليجرام الضائعة. إذا دخلتها، سأثبت
لنفسي وللجميع أنني لست مجرد "باحث عن المال"، بل أنا
".صاحب فكر

بدأتُ أتعامل مع المواد الدراسية بحب. لم أعد أحفظ التاريخ
للامتحان، بل لأفهم حركة الزمن. لم أعد أحل النصوص لأجيب عن
الأسئلة، بل لأتذوق الجمال. هذا الشغف جعل المذاكرة أسهل، وجعل
الدرجات ترتفع في الامتحانات التجريبية.

كان المدرسون يلاحظون هذا التغيير.

مستواك اتحسن جداً يا معتز، لو كملت كده هتجيب مجموع "
عالي". قالها لي مدرس الفلسفة وهو يسلمني ورقة الامتحان
بعلامة كاملة.

شعرتُ بزهو حقيقي، زهو يختلف تماماً عن زهو المال. هذا نجاح
.صنعته بجهد، بفكري، وليس بضربة حظ إلكترونية

كلما اقترب موعد الامتحانات، كان الخوف يزداد، لكنه كان خوفاً
ممزوجاً بالأمل. كنتُ أنظر إلى السماء ليلاً وأناجي ربي: "يارب، لا
تحرمني من هذا الحلم. لقد أخذتَ مني الأب، وأخذتَ مني المال، فلا
".تأخذ مني الحلم. اجعل الآداب بيتي وملادي

كنتُ قد رسمتُ مستقبلي بدقة متناهية في خيالي: سأدخل الآداب،
سأتميز، سأنشر روايتي الأولى، وسأصبح كاتباً مرموقاً يشار إليه
بالبنان. لم أضع "خطة بديلة". كان الرهان كلياً، والقلب معلقاً بخيط
واحد.. خيط الآداب

لم أكن أدرك أن الحياة لا تعطينا دائماً ما نريد بالصورة التي
رسمناها، وأن الله قد يخبئ لنا الخير في "صدمة" نراها شراً،
لتقودنا لطريق آخر.. طريق سأقابل فيه قدرتي الحقيقي، وسأقابل فيه
"آية"

جاء شهر يونيو، ومعه جاء "البيع" الذي يخيف كل بيت مصري.
كانت حرارة الصيف قد بدأت تشتد، وكان الشمس قررت أن تشارك
في هذه الملحمة بلهبها، لتزيد من سخونة الأجواء المتوترة أصلاً

ليلة الامتحان الأول لم تكن ليلاً عادياً. كانت الساعات تمر فيها ببطء
السلفاة، والدقائق تتمدد لتصبح دهرًا. كنتُ أتقلب في فراشي،
وعقلي يرفض الاستسلام للنوم. صور القواعد النحوية، وأبيات
الشعر، وتواريخ المعارك التاريخية تتراقص أمام عيني في فوضى

عارمة. كنتُ خائفاً.. ليس خوف الطالب المهمل، بل خوف المجتهد الذي يخشى أن تضيع جهوده في لحظة نسيان عابرة

استيقظتُ قبل المنبه، أو بالأحرى، قمتُ من محاولات النوم الفاشلة. توضأتُ واصلتُ الفجر، وبكيتُ طويلاً في سجودي. كانت تلك الدموع هي تفرغ لشحنة ضغط هائلة تجمعت في صدري على مدار عام كامل. دعوتُ الله ألا يخذلني، ألا يشمت بي أحداً، وأن يجعل ورقة الامتحان برداً وسلاماً على قلبي

خرجتُ من البيت، وكانت أُمي تقف عند الباب، عيناها حمراوان من السهر والدعاء. ضمتني بقوة، وقالت بصوت متهدج

"سمي الله يا حبيبي.. ربنا مش هيضع تعبك"

كانت كلماتها هي الترياق الذي هدأ روعي قليلاً. مشيتُ في الشارع نحو المدرسة، ورأيتُ مشهداً لن أنساه ما حييت. مئات الطلاب يسرون مثلي، وجوههم شاحبة، عيونهم زائغة، يحملون أقلامهم وكأنها أسلحة، وخلفهم جيش من الأمهات والآباء يقفون عند الأسوار، يقرأون القرآن ويدعون بصوت مسموع

وقفتُ أمام بوابة المدرسة، ونظرتُ إلى الآباء الواقفين ينتظرون أبناءهم. شعرتُ بوخزة الألم القديمة. "أين أنت يا أُمي؟". تمنيتُ لو كنتُ هنا، ولو لمرة واحدة، تقف مع هؤلاء الرجال، تنتظر خروجي لتسألني بلهفة: "عملت إيه؟". لكنني طردتُ هذه الفكرة بسرعة. "أنا هنا لنفسي.. ولأُمي

دخلتُ اللجنة. رائحة الورق، صوت المراوح القديمة التي تدور ببطء مزعج، نظرات المراقبين الصارمة.. كل شيء كان يوحي بالرهبة. استلمتُ ورقة الأسئلة، ويدي ترتجفان ورقة خريف.

"بسم الله الرحمن الرحيم"

بدأتُ أقرأ، ومع كل سؤال أجده مألوفاً، كانت عقدة الخوف تتحل تدريجياً. غبتُ عن الوعي بمن حولي، وانغمستُ في عالمي الخاص. كان القلم يجري على الورق كحصان انطلق من عقاله. كنتُ أكتب، وأكتب، وأفرغ كل ما في عقلي من معلومات، وكأني أنحت مستقبلي على هذه الأوراق البيضاء.

مرت الساعات الثلاث كأنها ثلاث دقائق. عندما قال المراقب: "انتهى الوقت، سيب القلم"، شعرتُ أنني أستيقظ من حلم عميق. سلمتُ الورقة، وخرجتُ.

خارج الأسوار، كان الضجيج يصم الأذان. صراخ وبكاء وضحك ومراجعات هستيرية. شققتُ طريقي وسط الزحام، باحثاً عن وجه أمي. وجدتها تقف في الزاوية، تفرك يديها بتوتر. بمجرد أن رأت ابتسامتي الهادئة، تنفست الصعداء وكأن جبلاً انزاح عن صدرها.

توالت الأيام بعد ذلك كسباق ماراثوني لا يرحم. امتحان وراء امتحان. مادة ترفعني للسماء، ومادة تهبط بي للأرض. أيام كنتُ أعود فيها منتصراً، وأيام كنتُ أعود فيها منكسراً، ألعن غيائي في سؤال تافه ضاع مني.

فقدت شهيتي تماماً، ونقص وزني بشكل ملحوظ. أصبحت هيكلاً عظيماً يتحرك بقوة الإرادة فقط. كنت أشعر أنني في نفق مظلم طويل، لا أرى نهايته، لكنني أجبر قلمي المتعبتين على الاستمرار في المشي.

وفي اليوم الأخير، يوم امتحان الفلسفة، خرجت من اللجنة وشعرت بفراغ غريب.
"انتهى الأمر".

انتهت الحرب. لا مزيد من السهر، لا مزيد من الكتب، لا مزيد من التوتر.

وقفت في فناء المدرسة، ونظرت إلى السماء الصافية. هل فعلت ما يكفي؟ هل كتبت في تلك الأوراق ما يستحق أن يوصلني لحلمي؟

لم أكن أملك الإجابة. كنت أملك فقط شعوراً بالإرهاق اللذيذ، وشعوراً آخر خفياً بالخوف من "المجهول" القادم. المجهول الذي يحمل اسم "النتيجة".

عدت إلى البيت، ورميت حقيبتني في زاوية الغرفة، ونمت. نمت لأول مرة منذ عام كامل نوماً عميقاً، بلا أحلام، بلا كوابيس، وبلا منبهات.

كنت أظن أنني سأرتاح، ولم أكن أعلم أن فترة "الانتظار" ستكون أشد قسوة من الامتحانات نفسها، وأن الصدمة التي تخبئها لي الأيام ستغير مسار حياتي للأبد.

(4)

لم تشرق شمس ذلك اليوم كعادتها، بل بدت وكأنها عين حمراء تراقبنا من خلف غمام رمادي كثيف. كان الهواء في بيتنا ثقيلاً، مشبعاً برائحة القلق والانتظار. إنه "يوم النتيجة"، اليوم الذي يتوقف فيه الزمن في بيوت مصر كلها، وتتحول فيه الأرقام إلى أحكام بالإعدام أو صكوك للبراءة.

استيقظتُ على صوت المذياع ينطلق من غرفة الجلوس. كان صوت المذيع يعلن ببرود قاتل: "اعتمد السيد الوزير نتيجة الثانوية العامة". "...بنسبة نجاح

قفزتُ من فراشي، وشعرتُ بمعدتي تتقلص بعنف. خرجتُ لأجد أمي جالسة أمام التلفاز، مسبحتها تدور بين أصابعها بسرعة جنونية، وعيناها معلقتان بالشريط الإخباري أسفل الشاشة.

.النتيجة نزلت يا معتر"، قالتها بصوت يرتجف"

جلستُ بجوارها، وأخرجتُ هاتفي. كانت شبكات الإنترنت تئن تحت وطأة الملايين الذين يبحثون عن مصائرهم في نفس اللحظة. الموقع لا يفتح.. السيرفر واقع.. رسائل الخطأ تظهر وتختفي

كانت كل دقيقة تمر وكأنها دهر من العذاب. العرق يتصبب من جبيني بارداً، وضربات قلبي تكاد تسمع من الجيران

.يا رب.. يا رب"، كانت أمي تهمس بلا توقف"

حاولتُ الدخول من رابط بديل. ظهرت الصفحة أخيراً. خانة بيضاء
"صغيرة تنتظر" رقم الجلوس
توقفت يدي في الهواء للحظة. هل أنا مستعد؟ هل أنا مستعد لمعرفة
إن كان تعبي قد أثمر أم ضاع هباءً؟
كتبتُ الرقم.. خانة.. خانة
"ضغطتُ على زر" عرض النتيجة

دارت الدائرة الصغيرة في منتصف الشاشة.. وتوقف الزمن
ثم.. ظهرت الاستمارة

.الاسم: معتر هيثم

...:المدرسة

...:المجموع الكلي

.حدقتُ في الرقم

.مسحتُ عيني وأعدتُ النظر

شعرتُ ببرودة تسري من أطراف أصابعي لتتجمد في قلبي. الرقم لم
يكن كارثياً، لكنه لم يكن "الحلم". لم يكن الرقم الذي يضمن لي
دخول "كلية الآداب" مرتاح البال، ولا الرقم الذي يرفع رأس أمي
أمام الناس كما وعدتها. كان رقماً "متوسطاً"، رقماً يضعني في
"مهب الريح، تحت رحمة" مكتب التنسيق

كام يا ابني؟ طمني!"، صرخت أمي وهي تهز كتفي".
نظرتُ إليها، ولساني ثقيل كقطعة رصاص.
جبت ... % "... (ذكرتُ الرقم بصوت خافت)"

ساد الصمت في الغرفة. صمتٌ أثقل من الصراخ. رأيتُ بريق الأمل:
ينطفئ في عينيها للحظة، قبل أن تحاول تدارك الموقف بقلب الأم
".الحمد لله.. الحمد لله يا ابني.. ناجح.. ناجح ومستور"

لكنني لم أسمعها. كنتُ أسمع فقط صوت تحطم أحلامي. "كلية
الآداب" التي رسمتُ نفسي في ممراتها، أصبحت الآن بعيدة المنال،
أو ربما مستحيلة. شعرتُ بالخدعة. لقد أعطيتُ هذا العام كل ما
أملك: وقتي، صحتي، وتفكيري. حرمتُ نفسي من النوم، ومن
الأصدقاء، ومن الحياة.. وفي المقابل؟ رقم بارد لا يعكس ليالي
السهر ولا قهر الرجال.

دخلتُ غرفتي وأغلقتُ الباب.

نظرتُ إلى الكتب المكدسة على المكتب، وإلى الورقة المعلقة
".الهدف: كلية الآداب". انتزعتها بعنف ومزقتها ألف قطعة
كذب.. كله كذب!"، صرختُ وأنا ألقى بالكتب على الأرض. "
".الاجتهاد لا يضمن شيئاً.. الدنيا دي حظوظ

شعرتُ بنفس المرارة التي ذقتها يوم رحيل أبي، ونفس المرارة يوم ضياع أموال التليجرام. أنا "معتز" الموعود بالخذلان. كلما اقتربتُ من حلم، مد لي لسانه واختفى

بكيثُ بحرقة لم أبكها من قبل. لم أكن أبكي الدرجات، بل كنت أبكي "العدل" الذي ظننتُ أنه موجود

في المساء، بدأت التليفونات ترن. الأقارب، الجيران، الجميع يسأل بفضول: "معتز عمل إيه؟". وكنتُ أسمع أمي تجيبهم بصوت تحاول أن تكسوه الفرحة: "الحمد لله.. مجموعه يدخله جامعة حكومية..".
"نعمة وفضل

.كانت تستر خيبيتي، وتداري كسرتي

نمتُ ليلتها وأنا أحرق في السقف، وعقلي يدور في دوامة من الأسئلة: "ماذا بعد؟ أين سأذهب بهذا المجموع؟ أي كلية ستقبل "بي؟"

لم أكن أعلم أن هذا الرقم "الصادم" هو في الحقيقة مفتاح لباب آخر، باب لم أكن لأنظره لو حصلت على ما أريد، باب يقودني إلى "جامعة عين شمس"، وإلى قدر أجمل بكثير مما خطت له.. لكنني في تلك اللحظة، لم أكن أرى سوى السواد

مرت الأيام التالية لإعلان النتيجة وكأنها دهر من العذاب البطيء.. كان البيت يعيش في حالة حداد صامت، رغم محاولات أمي المستميتة لإظهار الرضا. كنتُ أرى في عينيها ذلك الحزن الدفين،

الحزن على "المجموع" الذي لم يكن كما تمنينا، والخوف من "التنسيق" الذي قد يلقي بي في جامعة بعيدة في أقاصي الصعيد أو الدلتا، بعيداً عن حضنها.

جاء موعد "مكتب التنسيق". تلك الأيام العصيبة التي يتحول فيها مستقبل الطالب إلى مجرد رغبات تُكتب في مربعات إلكترونية صغيرة. جلستُ أمام شاشة الكمبيوتر في أحد مقاهي الإنترنت المزدحمة، والضجيج حولي يصم الآذان. شباب يصرخون، وأولياء أمور يتجادلون، وموظف "السيبر" يكتب بسرعة آلية لا تبالي بمصائر البشر.

أمسكتُ الفأرة ويدي ترتعش. بدأتُ أرتب الرغبات.
الرغبة الأولى: كلية الآداب - جامعة القاهرة (حلم بعيد)
الرغبة الثانية: كلية الآداب - جامعة عين شمس
...: الرغبة الثالثة

كتبتُ الرغبات وأنا مغمض العينين تقريباً، وكأني أقي زجاجة في بحر هائج، لا أدري أين ستستقر. كان مجموعي يقف على الحافة، تلك المنطقة الرمادية القاتلة بين "الكليات المرموقة" و"المعاهد العليا". كنتُ أخشى السيناريو الأسوأ: أن ترفضني جامعات القاهرة الكبرى، وأجد نفسي مغترباً وحيداً في محافظة لا أعرف فيها أحداً، أكرر مأساة الوحدة التي عشتها طوال عمري.

أغلقتُ الموقع، و عدتُ إلى البيت، وبدأ فصل جديد من الانتظار.
انتظار أشد قسوة من انتظار النتيجة، لأنه انتظار "المكان" الذي
سأنتمي إليه للأربع سنوات القادمة

وفي ظهيرة يوم قانظ من أيام أغسطس، ظهرت نتيجة التنسيق
دخلتُ الموقع بقلب ميت، لا يتوقع شيئاً. "يا رب، أي حاجة في
القاهرة، مش علوز أبعد عن أمي"، كان هذا هو دعائي الوحيد

"كُتبتُ رقم الجلوس، وضغطتُ "إظهار النتيجة"
ظهرت بطاقة الترشيح

.الاسم: معتز هيثم

.الكلية المرشحة: كلية الآداب - جامعة عين شمس

.تجمدتُ في مكاني

عين شمس؟ الجامعة العريقة ذات القصر الزعفراني؟ هل قبلتني؟
فركتُ عيني غير مصدق. نعم، الاسم واضح، والكلية واضحة. لم
يلق بي التنسيق بعيداً، ولم يخذلني القدر هذه المرة. لقد حصلتُ على
".الآداب" في قلب القاهرة، في جامعة لها تاريخ وهيبة

صرختُ بأعلى صوتي: "أمي! أمي! جات عين شمس! جات
".!الأداب

.هرولت أمي من المطبخ، والسكين في يدها، ووجهها مخطوف
"إيه يا ابني؟ حصل إيه؟"

قبلوني في عين شمس يا أمي! مش هسافر.. هفضل جنبك، "
"!وهدخل الكلية اللي بحبها

سقطت السكين من يدها، ورفعت كفيها للسماء، وانخرطت في بكاء
.هستيري. بكاء الفرحة الذي يغسل هموم الشهور الماضية
الحمد لله.. الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. ربنا جبر "
".بخاطرك يا ابني.. ربنا ما بيضيعش تعب حد

احتضنتها بقوة، وشعرتُ أن روعي تعود إليّ. صحيح أن المجموع
لم يكن "خرافياً"، لكن الله اختار لي "الأفضل". اختار لي أن أكون
في جامعة عريقة، وسط مدينتي، وفي المجال الذي عشقه قلبي

في تلك الليلة، طبعتُ "بطاقة الترشيح". ورقة بسيطة، لكنها كانت
بالنسبة لي "وثيقة ميلاد" جديدة. نظرتُ إلى اسم "جامعة عين
شمس" المكتوب بالبنت العريض، وشعرتُ برهبة لذيذة
هناك، خلف أسوار تلك الجامعة، ستبدأ حياتي الحقيقية. هناك سأدفن
"معتز الطفل" و"معتز الموهوم"، وسأبني "معتز الكاتب" و"معتز
".الإنسان

نظرتُ من الشرفة إلى أضواء القاهرة التي بدت لي ليلتها أكثر سطوعاً. شعرتُ أن المدينة تبتسم لي لأول مرة، تفتح لي ذراعيها. "وتقول: "أهلاً بك في ساحة الكبار

لم أكن أعلم أن تلك الجامعة لن تمنحني فقط الشهادة والعلم، بل ستمنحني "الحب" الذي سيقلب كياني، وستهديني "آية"، الهدية التي يخبئها القدر في ردهات الغيب

نمتُ تلك الليلة وفي قلبي سكينه لم أذقها منذ سنوات. لقد انتهت المعركة، وبدأت الرحلة

كانت شمس أكتوبر تشرق بخجل، تلقي بظلالها الطويلة على أرصفة العباسية المزدهمة. وقفتُ أمام البوابة الرئيسية لجامعة عين شمس، قلبي يدق بعنف يختلف عن دقات الخوف من الامتحانات؛ كان دقيقاً ممزوجاً برهبة البدايات

رفعتُ رأسي لأتأمل المشهد. أمامي انتصب "قصر الزعفران" بلونه الأصفر المميز وطرازه المعماري الفريد، يقف شامخاً كشاهد على تاريخ طويل، وكأنه حارس عتيق يراقب الآلاف من الطلاب الذين يتدفقون عبر البوابات كالنهر الهادر. شعرتُ بضآلة حجمي أمام هذا الصرح. أنا، "معتز"، الشاب الذي قضى سنواته الأخيرة حبس شاشة صغيرة وغرفة مغلقة، أقف الآن عارياً أمام العالم الحقيقي، وسط طوفان من البشر

خطوتُ خطوتي الأولى داخل الحرم. كان الهواء مختلفاً هنا، مشبعاً بطاقة الشباب، وأصوات الضحكات، ونقاشات السياسة والحب والدراسة التي تتداخل لتصنع سيمفونية الحياة الجامعية. رأيتُ شللاً من الأصدقاء يتجمعون، وثنائيات يمشون ببطء، وطلاباً يهرولون للحاق بمحاضراتهم.

شعرتُ بغربة قاسية في اللحظات الأولى. كنتُ وحيداً تماماً، لا أعرف أحداً، ولا أحد يعرفني. تذكرتُ أيام "التليجرام" عندما كنتُ أدخل أي مجموعة فيرحب بي الجميع كأنني "العمدة". هنا، أنا نكرة. لا أحد يلتفت لي، لا أحد يفسح لي الطريق. كان هذا التجاهل مؤلماً. "لكبريائي الذي لم يشفَ تماماً، لكنه كان في الوقت نفسه "تحدياً

سألتُ أحد أفراد الأمن عن مكان "مدرجات الآداب". أشار لي بيده بمثل نحو مبنى قديم نسبياً. مشيتُ في الممرات، أتأمل الوجوه. وجوه تشبهني، ووجوه تختلف عني. بنات بملابس زاهية، وشباب بملابس بسيطة، خليط عجيب من طبقات مصر كلها انصهر في بوتقة واحدة.

دخلتُ المدرج الكبير. كان أشبه بمسرح روماني ضخم، يتسع للمئات. رائحة الخشب القديم، والمقاعد المتهالكة التي تحمل تواريخ وذكريات محفورة عليها، والسبورة الخضراء العملاقة في الأسفل.. "كل شيء كان ينطق بـ "العراقة

جلستُ في صف متوسط، وراقبتُ المشهد. الطلاب يدخلون، يتعارفون، يتبادلون أرقام الهواتف. شعرتُ برغبة ملحة في الانكماش، في العودة إلى قوقعتي الآمنة. "ماذا أفعل هنا؟ هل سأتمكن من مجاراة هؤلاء؟ هل سأجد مكاناً لي بينهم؟"

لكن فجأة، تذكرتُ وعدي لنفسي أمام المراة. "لن أكون هامشياً". لقد جربتُ العزلة وكدتُ أموت فيها حياً. الجامعة ليست للدراسة. فقط، بل هي "مولد" كبير، وعليّ أن أكون فيه "صاحب مقام".

دخل الدكتور، رجل وقور بشعر أشيب ونظارة طبية سميكة. عم الصمت في المدرج، وبدأ يتحدث عن "فلسفة الأدب". كان أسلوبه ساحراً، يأخذك من يدك ليعبر بك عصوراً وأزمنة. ولأول مرة منذ سنوات، شعرتُ أن عقلي "يشبع". لم أكن أحسب أرباحاً ولا خسائر، كنتُ أحسب أفكاراً.

خرجتُ من المحاضرة وأنا أشعر بنشوة غريبة. وقفتُ في ساحة الكلية، ونظرتُ إلى قصر الزعفران مرة أخرى من بعيد. يا قصر يا عالي..، همستُ في سري. "بكره هكون معروف فيك". زي ما كنت معروف في عالمي القديم. بس المرة دي، هكون "معروف بوشي الحقيقي، وباسمي الحقيقي.. معتر هيثم".

أخذتُ نفساً عميقاً من هواء الجامعة، وشعرتُ أن رنتي تتسعان لأول مرة. لم أعد خائفاً. الخوف كان من المجهول، والآن "عين شمس".

أصبحت هي المعلوم، هي الأرض الجديدة التي سأزرع فيها بذور
حكايتي.

مشيتُ نحو البوابة للخروج، وخطواتي أكثر ثباتاً. كنتُ أعلم أن
الطريق طويل لكسر حاجز الوحدة وكسب قلوب الناس، لكنني كنتُ
مستعداً للمعركة الاجتماعية القادمة، التي ستكون تمهيداً للقاء
الأكبر.. لقاء "آية"

لم يستغرق الأمر طويلاً لأدرك أن الجامعة ليست مجرد قاعات
محاضرات ومقررات دراسية، بل هي مجتمع مصغر، دولة لها
قوانينها وشخصياتها المؤثرة. كنتُ أراقب "رؤساء الأسر" الطلابية
وقادة الاتحادات، وكيف يلتف حولهم الطلاب كما تلتف الكواكب حول
الشمس. في تلك اللحظة، قررت أنني لن أكون كوكباً تابعاً، ولا نيزكاً
. عابراً يحترق في الغلاف الجوي دون أن يلحظه أحد.

كانت البداية في "لجنة النشاط الثقافي". دخلتُ مقر اللجنة، غرفة
صغيرة مكتظة بكتب مبعثرة ولوحات فنية غير مكتملة، ورائحة
قهوة رخيصة تعبق في المكان. كان هناك مجموعة من الطلاب
يتجادلون بصوت عالٍ حول تنظيم ندوة شعرية متعثرة. الفوضى
. كانت سيدة الموقف، والجميع يتحدث ولا أحد يسمع.

وقفتُ عند الباب لحظة، أستدعي "معتز" القديم، المدير الذي كان
يدير عشرات المجموعات الرقمية بلمسة إصبع. تنحنحتُ بصوت
. مسموع، ثم دخلتُ بخطوات واثقة.

يا شباب، الصوت العالي مش هيحل المشكلة. إيه العقبة اللي "
"قدامكم؟

صمت الجميع ونظروا إليّ بدهشة. من هذا الغريب الذي يقتحم
فوضاهم بهذا الهدوء؟

تحدث أحدهم بضيق: "المسرح محجوز، والضيوف اعتذروا،
". والإيفينت هيفشل

. ابتسمتُ ابتسامة هادئة، وسحبتُ كرسيّاً وجلستُ في المنتصف
بسيطة. لو المسرح محجوز، نعملها في "الجرين إريا" (المنطقة "
الخضراء)، هيبقى جو مفتوح وأحلى. والضيوف لو اعتذروا، إحنا
عندنا مواهب في الكلية أحسن منهم ألف مرة.. نطلعهم هما ونعمل
مسابقة "ميكروفون مفتوح". منها حلينا المشكلة، ومنها كسبنا
". تفاعل الطلبة

تبادلوا النظرات. كانت الفكرة بسيطة، لكن طريقة طرحي لها كانت
". تحمل نبرة "القيادة

. أنت مين؟" سألني رئيس اللجنة بفضول

". معترز.. طالب سنة أولى، وبحب الشعر"

منذ تلك اللحظة، أصبحتُ "الجوكر". لم أكتفِ بالكلام، بل نزلتُ إلى
أرض الواقع. كنتُ أجري بين المكاتب لإنهاء التصاريح، وأقف مع

العمال لتركيب السماعات، وأصمم الملصقات الدعائية بمهارتي
القديمة في الجرافيك (التي أخفيتُها كسر مهني)

يوم الندوة، كان الحضور غير مسبوق. وقفتُ خلف الكواليس أراقب
نجاحي الأول على أرض الواقع. لم يكن نجاحاً مالياً، لم أقبض مليماً
واحداً، لكن التصفيق الذي ضج به المكان كان أعلى من كل دولارات
التليجرام.

بدأ اسمي يتردد في الأروقة. "معتز اللي حل مشكلة الندوة"، "معتز
اللي بيخلص أي ورق"، "معتز الجدع". اكتشفتُ أنني أملك موهبة
فطرية في "احتواء البشر". كنتُ أسمع مشاكل زملائي باهتمام
حقيقي؛ هذا متعثر في مادة، وتلك ضائعة في التنسيق الداخلي، وهذا
يبحث عن سكن. كنتُ أساعد الجميع بلا مقابل، وبلا تعالٍ

تحولت وحدتي القاتلة إلى زحام محبب. أصبحتُ أمشي في ممر
الكلية فلا أكاد أقطع مترين دون أن يوقفني أحد للتحية

"إصباح الخير يا زيزو"

"إيه يا معتز، مش هتيجي معنا الرحلة؟"

"معتز، محتاجينك ضروري في اجتماع الاتحاد"

شعرتُ بدفع "القبول". ذلك الشعور الذي حرمت منه طفلاً، وأبحث
عنه مرهقاً، وجدته الآن شاباً. لم يشترني هؤلاء بمالي، ولا

بسيارتي الفارحة التي لم أمتلكها، بل أحبوني لما أنا عليه..
لشهامتي، لذكائي، وللابتسامة التي لم تعد تفارق وجهي

أصبحتُ معروفاً في الكلية كلها، ليس كطالب متفوق فحسب، بل
كشخصية "كاريزمية". حتى الدكاترة بدأوا يحفظون اسمي
ويطلبونني بالاسم في المحاضرات

وفي غمرة هذا الصخب الجميل، بدأت ملامح "معتز الكاتب" تتشكل
بوضوح. كنتُ أستلهم من حكايات الناس، ومن وجوههم، ومن
انفعالاتهم، مادة لرواياتي

لكن، وسط كل هذه الوجوه، كان هناك وجه واحد لم يظهر بعد. وجه
كنتُ أبحث عنه في عيون كل فتاة تقابلني دون أن أدري. كنتُ أشعر
أن هناك فصلاً ناقصاً في حكايتي، وأن هذا النجاح الاجتماعي، رغم
حلاوته، يفتقد "الشريك" الذي يصفق لي بحرارة مختلفة.. بحرارة
الحب.

لم أكن أعلم أن هذا الشريك، تلك الـ "آية"، كانت أقرب مما أتخيل،
وأن القدر ينسج خيوط لقائنا في صمت، ليقرب حياتي المستقرة رأساً
على عقب، ويضعني أمام اختبار القلب الأعظم

كان من المفترض أن أكون أسعد شاب في "آداب عين شمس".
اسمي يتردد في طرقات الكلية، وهاتفني لا يتوقف عن الرنين بطلبات
المساعدة أو دعوات الخروج، ومقعدي في "كافتيريا الكلية" أصبح

يشبه البرلمان الصغير الذي تُحل فيه مشاكل الطلاب وتُناقش فيه
قضايا الأسر الطلابية.

حققتُ كل ما تمنيت؛ استعدتُ اعتباري، وأثبتتُ لنفسي أنني أمتلك
تأثيراً حقيقياً ينبع من شخصيتي لا من رصيدي البنكي. لكن، في
نهاية كل يوم، عندما كنتُ أعود إلى بيتي، وأغلق باب غرفتي عليّ،
كان يهاجمني شعور غريب بالفراغ. شعور يشبه الثقب الأسود الذي
يبتلع كل أضواء الشهرة التي عشتها في النهار.

كانت علاقاتي بالجميع "أفقية"؛ أعرف الكل، والكل يعرفني، لكنني
لا أملك شخصاً واحداً أهبط معه إلى "العمق". كنتُ أسمع أسرار
الجميع، وأضمد جراح الجميع، لكن لم يكن هناك من أخلع أمامه
قناع "الشاب الجدع القوي" لأقول له: "أنا متعب.. أنا خائف.. أنا
".أحتاج أن يُسمع لي لا أن أسمع

في المحاضرات، كنتُ أراقب زملائي. أرى تلك النظرات المتبادلة
بين المحبين، أرى كيف يقتسمون "ساندوتشاً" واحداً بضحكات
صافية، وكيف يسرون في ممرات الجامعة وكأنهم يمتلكون العالم.
كنتُ أشعر بغيرة بيضاء؛ لستُ غيوراً من أشخاصهم، بل من تلك
"الحالة" من السكينة التي يمنحها وجود شريك يفهم صمتك قبل
كلامك.

أمي، بذكائها الفطري، كانت تلاحظ هذا السرحان

"مالك يا معتز؟ الكلية واخدة كل وقتك، بس عينك فيها كلام كثير"
كنتُ أهرب بابتسامة: "مفيش يا أمي، ضغط الأنشطة والامتحانات
بس."

يا ابني، الشهرة والناس حلوة، بس القلب بيحتاج ونس. ربنا "
"يبعتك اللي تريح بالك وتكون سندك

كانت دعواتها تلمس الوجد الكامن في صدري. بدأتُ أشعر أن
نجاحي ناقص، وأن قصتي تفتقد بطلتها. كنتُ أكتب روايتي الجديدة،
لكن الشخصية النسائية فيها كانت باهتة، بلا روح، لأنني ببساطة لم
أكن قد عرفت الحب بعد. كنتُ أصف المشاعر كما يصف الأعمى
الألوان؛ بالسمع لا بالرؤية.

في أحد أيام شهر مارس، كان الجو يميل للدفء، والزهور في
حديقة الكلية بدأت تفتح. كنتُ جالساً وحدي على مقعد خشبي بعيد
عن التجمعات، أحاول كتابة مشهد في روايتي. كانت الكلمات تأتي
". أن تطاوعني. شعرتُ بحالة من "الجفاف العاطفي

نظرتُ حولي في الساحة، ورأيتُ مئات الفتيات يمررن. جميلات،
مثقفات، مرحات.. لكن أحداً منهن لم تكن تحرك بداخلي ذلك الزلزال
الذي قرأتُ عنه في الكتب. كنتُ أبحث عن شيء لا أعرفه، عن نعمة
مفقودة في سمفونية حياتي

هل سأظل وحيداً هكذا؟"، سألتُ نفسي بمرارة. "هل كُتِبَ عليّ أن "أكون السند للجميع، ولا أجد من أستند عليه؟

لم أكن أعلم أن القدر قد استجاب لدعاء أمي، وأن "اللقاء" الموعود قد اقترب جداً. لم أكن أعلم أن تلك الفتاة التي ستغير تعريف "الحب" عندي، وستجعلني أنسى كل ما تعلمته من منطق وفلسفة، تقف الآن على بُعد أمتار قليلة، تنتظر صدفة عابرة لتقتحم عالمي وتقلبه رأساً على عقب.

كانت "آية" قادمة، تحمل معها الربيع الحقيقي، وتحمل معها أيضاً أصعب الاختبارات التي سأواجهها في حياتي؛ اختبار أن أتعلم كيف أحب، وكيف أكون جديراً بمن أحب.

أغلقتُ دفترتي، وقررتُ أن أقوم لأتمشى قليلاً. وفي تلك اللحظة، اصطدمتُ بها عند مدخل المبنى.. ومن هنا، بدأت الحكاية الحقيقية

(5)

كان ذلك الصباح يشبه أي صباح آخر في جامعة عين شمس؛ ضجيج معتاد، طلاب يهرولون، وباعة المناديل والكتب عند الأسوار يمارسون طقوسهم اليومية. كنتُ أسير في الممر الطويل المؤدي إلى مبنى "الدراما والنقد"، أحمل في يدي مجموعة من الأوراق والملفات الخاصة بفعالية ثقافية كنتُ أشرف على تنظيمها. كان عقلي مشغولاً بالتفاصيل، بالمواعيد، وبكلمة الافتتاح التي سألقها

وعند مدخل المبنى، حيث تزدحم الخطوات، حدث ما لم يكن في الحسبان. كنتُ أسرع في مشيتي، وهي كانت تخرج من الباب بحقيبة مثقلة بالكتب. ارتطمنا بقوة، تطايرت أوراق في الهواء كأنها أسراب من الحمام الأبيض، وسقطت كتبها على الأرض محدثة صوتاً. ارتطم بقلبي قبل أن يرتطم بالرخام.

أنا آسف جداً.. بجد مخدتش بالي"، قلتها وأنا أنحني بسرعة " لأجمع أوراق المبعثرة

جاءني صوتها هادئاً، رزيناً، وفيه نبرة عتاب رقيقة: "ولا يهملك،". بس ياريت نركز في الطريق شوية

رفعتُ رأسي لأعذر مرة أخرى، لكن الكلمات تجمدت في حلقي. كانت "آية". لم أكن أعرف اسمها حينها، لكنني رأيت وجهاً لم أراه من قبل في كل ردهات الكلية. لم تكن ملامحها تشبه بطلات الأفلام اللواتي كنتُ أراهن، كانت تحمل جمالاً "حقيقياً"، جمالاً نابعاً من ثقة هادئة ونظرة عيينين واسعتين تشعان ذكاءً وصفاءً.

مددتُ يدي لأساعدها في جمع كتبها. التقطتُ كتاباً في "الأدب". "المقارن"، وآخر في "تاريخ الفلسفة

. أنتِ في آداب برضه؟" سألتُ بفضول محاولاً إطالة لحظة اللقاء"

نظرت إليّ بطرف عينا وهي تأخذ الكتب من يدي: "أيوه، قسم لغة
عربية.. سنة ثانية"

ابتسمتُ محاولاً استعادة "كاريزما" الشاب المشهور: "غريبة.. أنا
معتز، تقريباً مفيش حد في الكلية ميعرفنيش، بس أول مرة
أشوفك"

توقفت عن الحركة للحظة، ونظرت إليّ نظرة فاحصة خلت من أي
انبهار، وقالت ببساطة أذهلتني: "أهلاً يا معتز. وأنا آية. ومش معنى
إنك مشهور إن الكل لازم يعرفك، أو إنك لازم تعرف الكل. الجامعة
كبيرة"

كانت كلماتها صفة لطيفة لغروري الذي بدأ ينمو من جديد. لأول
مرة منذ دخولي الجامعة، أجد فتاة لا تبسم لي بإعجاب فور سماع
اسمي، ولا تسعى للحديث معي. كانت قوية، مستقلة، وواضحة.
وهذا بالضبط ما جعل قلبي ينبض بطريقة غريبة لم أعدها

عندك حق.. أنا فعلاً اللي كنت فاكِر إنني ملك الكلية"، قلتها "
بضحكة خجولة حقيقية

ابتسمتُ هي الأخرى، وكانت ابتسامتها كفيلة بإنهاء كل الصراعات
في العالم

"عن إنك، عندي محاضرة"

"آية!"، ناديتُ عليها قبل أن تبعد"

.التفتت إليّ بتساؤل

ممكّن.. يعني.. لو احتجت حاجة في الأنشطة أو الورق، أنا "

"موجود دائماً في مكتب الاتحاد

هزت رأسها بالموافقة دون أن تعد بشيء، وغابت وسط زحام
الطلاب.

بقيت واقفاً في مكاني لدقائق، والأوراق في يدي نسيتهها تماماً.
شعرتُ برائحة ياسمين خفيفة تركتها خلفها، ورائحة أخرى لروح
لمست روعي. لم يكن مجرد "إعجاب"، كان شعوراً بالانتماء.
شعرتُ أن هذه الفتاة هي "المرساة" التي كنتُ أبحث عنها وسط
بحار الشهرة الزائفة.

عدتُ إلى منزلي في ذلك اليوم وأنا شخص آخر. لم أفتح الكمبيوتر،
ولم أراجع خطط العمل. جلستُ على مكتبي، وأمسكتُ بالقلم، ولأول
مرة، لم أكتب عن الفشل أو الوجد. كتبتُ عن "العيون التي تعيد
"صياغة العالم

حكيتُ لأمي عما حدث، دون أن أذكر اسم آية، لكنها شعرت بنبرة
صوتي المختلفة.

شكل الربيع دخل بيتنا بدري السنة دي يا معتز"، قالتها وهي "
تغمز لي بعينها

"مش عارف يا أمي.. بس حاسس إن في حاجة كبيرة هتحصل"

لم أكن أعلم أن هذه الصدفة هي حجر الأساس لمستقبلي. لم أكن أعلم أن آية هي من ستعلمني معنى الحب الحقيقي، وهي من ستقف بجانبني في أصعب اللحظات، وهي من سأحمل طفلنا "زين" منها يوماً ما، لنروي له كيف بدأ كل شيء بصدفة عند باب مبنى قديم في جامعة عين شمس.

بدأت أبحث عنها في الأيام التالية بكل جوارحي. لم أعد أهتم بمن يبحث عني، أصبحت أنا "الباحث". والبحث عن آية، لم يكن سهلاً، لأنها كانت كاللؤلؤة التي ترفض أن تطفو على السطح، وتفضل البقاء في عمق هدونها

أمضيت الأيام التي تلت لقاءنا الأول وأنا أعيش حالة من التشتت لم أعرفها حتى في ذروة خسائري المالية. كان وجه "آية" يطاردني في صفحات الكتب، وفي وجوه المارة، وحتى في أحلامي القلقة. اكتشفت أن الشهرة التي بنيتها في أروقة الكلية لم تكن سوى قشرة خارجية هشة، تهشمت تماماً أمام نظرة واحدة من عينيها اللتين لا تعرفان المجاملة.

بدأت أتردد على الأماكن التي يرتادها طلاب قسم اللغة العربية. لم أعد أبحث عن الصخب أو التجمعات الكبيرة، بل كنت أبحث عن ذلك الهدوء الذي يحيط بها. وجدتها ذات ظهرها جالسة في زاوية منزوية بحديقة الكلية، بعيداً عن ضجيج "الكافتيريا"، كانت غارقة في قراءة ديوان شعري قديم، وتمسك بمرسمة تدون بها ملاحظات على الهامش.

ترددت كثيراً قبل أن أقرب. أنا "معتز" الذي يواجه مئات الطلاب في الندوات دون ارتباك، كنتُ أشعر الآن أن قدمي لا تحملاني. استجمعتُ شجاعتي ووقفتُ أمامها.

يا ترى الشاعر ده محظوظ عشان بتقرني له، ولا مظلوم عشان "واخذ كل تركيزك؟"

رفعت "آية" رأسها ببطء، ولمحتُ في عينيها لمعة ذكاء تدرك تماماً "الأعيب" الشباب للفت الانتباه. أغلقت ديوانها بهدوء وقالت بنبرة رصينة:

الشاعر محظوظ لو قدر يوصل رسالته، والتركيز حق الكتاب مش "حق اللي بيقرأه. أهلاً يا معتز"

جلستُ على طرف المقعد المجاور لها، محاولاً أن أبدو طبيعياً. آية.. أنا بجد عاوز أعتذر لك عن طريقي المرة اللي فاتت. "اكتشفت إنني كنت بتعامل بمنطق "النجم"، وده غلط. الحقيقة إنني "معجب جداً بهدوئك، وحابب فعلاً نعرف بعض أكثر"

نظرت إليّ طويلاً، وكأنها تقرأ ما وراء كلماتي. لم تكن نظرة اتهام، بل كانت نظرة استكشاف.

معتز، أنا بشوفك من بعيد في الجامعة. بشوف الناس وهي "ملمومة حوالبك، وبسمع كلامهم عن شطارتك وجدعتك. بس دائماً

بسأل نفسي: فين معتر الحقيقي وسط كل الزحمة دي؟ الشخص اللي
"بيضحك في الصور، هو نفسه اللي بيفكر وهو لوحد؟"

ساد صمت مفاجئ. أصابتي كلماتها في مقتل. كيف استطاعت هذه
الفتاة، في دقائق معدودة، أن تضع يدها على الجرح الذي حاولت
مداراته لسنوات؟

:قلت بصوت منخفض، وقد تلاشت كل محاولات التصنع

الحقيقة.. معتر اللي لوحده تعبان شوية. معتر اللي لوحده شايل "
ذكريات ثقيلة، ومحاولات فاشلة، وخوف من إنه ميبقاش كفاية في
نظر اللي بيحبهم. أنا بنيت الشهرة دي عشان أهرب من الضعف
". اللي جوايا

رأيت ملامحها تلين لأول مرة. وضعت يدها على الديوان الذي تحمله
:وقالت بهدوء

كلنا بنهرب يا معتر، بس الهروب للناس أصعب أنواع الهروب، "
لأنه بيخليك تنسى نفسك. القوة الحقيقية مش إن الكل يحبك، القوة
". إنك تحب نفسك وتقبلها بعيوبها

في تلك الجلسة، بدأت أكتشف "آية" الحقيقية. لم تكن مجرد فتاة
جميلة، بل كانت عقلاً ناضجاً يسبق سنها بمراحل. اكتشفت أنها
تحب الأدب، وتكتب القصص القصيرة، وتؤمن بأن الكلمة هي أمانة
يجب أن نحاسب عليها. كانت تتحدث عن أحلامها في أن تصبح

أديبة تعبر عن هموم الناس، ليس من أجل الشهرة، بل من أجل الأثر.

كلما تحدثت، كنتُ أشعر أنني أنجذب لروحها أكثر من ملامحها. كانت "آية" هي المرأة التي يمكن أن أستند عليها دون أن أخشى السقوط. كانت المرأة التي أريد أن أرى فيها حقيقتي، لا صورتني المزيفة التي يراها الناس.

تعرفني يا آية..، قلتها وأنا أقوم للانصراف، "أنا النهاردة كسبت "

"درس في الفلسفة أهم من كل المحاضرات اللي حضرتها

ابتسمت ابتسامة خفيفة، لكنها كانت صادقة هذه المرة: "الدروس الحقيقية بنتعلمها من بعض يا معتز.. لو بطلنا نتكلم ونبدأ نسمع

عدتُ إلى منزلي ليلتها، ولأول مرة منذ سنوات، لم أشعر بالحاجة لتفقد "إشعارات" الإعجاب على هاتفي. كنتُ أفكر فقط في "آية". في الكلمات التي قالتها، وفي الهدوء الذي منحته لروحي القلقة

شعرتُ أنني بصدد الدخول في أجمل رواية كتبتها في حياتي، رواية لستُ أنا مؤلفها الوحيد، بل تشاركني فيها "آية". بدأتُ أدرك أن الطريق لقلبها طويل، وأنه لا يُختصر بالكلمات المنمقة، بل بالصدق، والصدق فقط.

بدأت أضع خطة لنفسى؛ سأثبت لها أنني جدير بهذا القرب، وأن "معتز" الذي تراه هو رجل حقيقي، يحمل جراح الماضي لكنه يطمح لمستقبل يكون فيه "كفاية" لمن يجب. لم أكن أعلم أن هذا الطريق سيقودنا ليوم تاريخي في حياتي، يوم 5 مايو 2025، حيث سأربط قدرها للأبد

لم تعد لقاءاتنا في أروقة الجامعة مجرد صدف عابرة، بل تحولت إلى موعد غير معلن، تنتظره روحي بلهفة المسافر الذي أبصر ضوء منزله بعد طول اغتراب. كانت المكتبة المركزية في جامعة عين شمس هي ملاذنا؛ هناك، بين رائحة الورق القديم وسكون المعرفة، كنا ننسج عالماً خاصاً بنا، لا يصله ضجيج الخارج ولا صراعات الاتحادات الطلابية.

في أحد تلك الصباحات الهادئة، كنتُ أجلس قبالتها، وبيننا طاولة خشبية متهاكة تحمل آثار أقلام آلاف الطلاب الذين مروا من هنا. كنتُ قد أحضرتُ معي بضع صفحات من مسودة روايتي الجديدة "لم أكن كافياً". كانت تلك المرة الأولى التي أسمح فيها لأحد، أياً كان، أن يقرأ كلماتي وهي لا تزال في طور التكوين، نابضة بوجعها الأول.

مددتُ لها الأوراق بيد ترتجف قليلاً، وكأني أقدم لها قلبي فوق طبق من ورق.

"آية.. يهمني جداً أعرف رأيك. دي أول مرة حد يشوف الكلام ده"

أخذت "آية" الأوراق بصمت، ووضعت نظارتها الطبية التي تزيد وجهها وقاراً وجمالاً، وبدأت تقرأ. كنتُ أراقب ملامحها بدقة؛ حركة عينيها وهي تنتقل بين السطور، تتهديتها الخفيفة عند مقطع مؤلم، وعبوسها البسيط عند جملة لم تعجبها. كانت الدقائق تمر عليّ وكأنها سنوات من الاختبار.

أنهت القراءة، ثم وضعت الأوراق بهدوء ونظرت إليّ بعينين تلمعان بشيء يشبه التأثر.

معتز.. أنت مش بتكتب رواية، أنت بتنزف وجعك على الورق. ليه " الشخصية الرئيسية دائماً بتحس إنها لازم تثبت حاجة؟ ليه البطل شايف نفسه صغير ومحتاج يملأ عينه بالفلوس أو بالشهرة عشان "يحس إنه موجود؟"

ابتلعتُ ريقِي بصعوبة. لقد نفذت إلى أعماقي مرة أخرى بذكائها الفطري.

يمكن لأنه فعلاً حاسس بكده يا آية. يمكن لأنه جرب الخذلان من "أقرب الناس ليه، فبقى خايف يتقال عليه 'مش كفاية' تاني

:أمالت رأسها قليلاً، وقالت بصوت دافئ كنسيم الفجر

عارف يا معتز، الفرق بين الكاتب الحقيقي وأي حد تاني، هو "الصدق. والكلام ده صادق جداً لدرجة إنه وجعني. بس لازم تعرف إنك مش محتاج تثبت حاجة ليا، ولا للجامعة، ولا حتى لأبوك. أنت "كفاية بقلبك ده، وبمحاولتك إنك تبدأ من جديد

في تلك اللحظة، شعرتُ وكان حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلي. كانت كلماتها بمثابة صك غفران لكل خطايا الماضي، ولبسماً لجراح الخذلان القديمة. لم تعد آية مجرد زميلة أو "إعجاب" عابر، بل أصبحت "البوصلة" التي توجه سفينتي التائهة نحو شاطئ الأمان.

بدأنا نتحدث عن أشياء أعمق؛ عن أحلامنا البسيطة، عن خوفنا من المستقبل، وعن حبنا المشترك للغة العربية. كانت آية تملك قدرة مذهلة على جعل الأمور المعقدة تبدو بسيطة. كانت تعلمني كيف أرى الجمال في التفاصيل الصغيرة؛ في فنجان قهوة نقتسمه، في نقاش حول بيت شعر للمتنبى، وحتى في صمتنا الطويل الذي لم يكن يشعرا بأي حرج.

تغيرت نظرتي للجامعة وللناس. لم يعد يهمني أن يصفق لي الجميع، كان يكفيني أن أرى الرضا في عينيها. بدأت أدرك أن "الغنى" الحقيقي ليس في نصف مليون جنيه تُجمع في الخفاء، بل في إنسان واحد يراك بكل عيوبك ويختار أن يبقى بجانبك.

ومع اقتراب نهاية العام الدراسي، كانت مشاعرنا قد تجاوزت حدود الكلمات. لم نكن بحاجة لاعتراف صريح، فكل شيء فينا كان يعترف؛ نظراتنا، اهتمامنا بالتفاصيل الصغيرة لبعضنا البعض، وحتى خوفنا المتبادل من لحظات الوداع عند بوابة الجامعة.

.عدتُ إلى بيتي ذلك المساء، ووجدتُ أمي تراقبني بابتسامة غامضة
معتز، وشك منور النهاردة بزيادة.. يا ترى آية هي اللي مخلية "
"الربيع مبيخلصش عندك؟
ضحكتُ من قلبي، وقبلتُ يدها: "آية هي اللي خلنتي أعرف أعيش يا
"أمي."

في تلك الليلة، كتبتُ في مذكراتي جملة واحدة: "لقد وجدتُ السكن".
لم أكن أعلم أن هذا السكن سيواجه عواصف كثيرة، وأن قلبي
سيختبر آلاماً جديدة، لكنني كنتُ موقناً أنني بجانب آية، أستطيع
.مواجهة العالم كله بصدور عارية

كانت الخطوات تتسارع نحو ذلك التاريخ الذي سيغير مجرى حياتي
للأبد، الخامس من مايو 2025، حيث سيصبح الحلم حقيقة،
وسأعلن أمام الملا أنني اخترت آية رفيقة للدرب.. وأنها، فقط هي،
كانت "كافية" لتملأ فراغ أيامي

(6)

لم أكن أدرك أن امتلاء القلب أصعب بكثير من امتلاء الجيوب، وأن
الشعور بالسكينة يفوق بمراحل نشوة الثراء السريع. في تلك الأيام،
بدأتُ أشعر أن "معتز" القديم يتلاشى، ذلك الشاب الذي كان يلهث
خلف الأرقام ويقيس قيمته بمدى إعجاب الغرباء به، ليحل محله
.إنسان آخر، أكثر هدوءاً، وأشد صدقاً، وأعمق بصيرة

كانت آية هي المركز الذي تدور حوله مجراتي. لم تعد مجرد فتاة أحبها، بل أصبحت "المعيار" الذي أقيس به كل أفعالي. إذا فكرتُ في الانخراط في نشاط جامعي جديد، أسأل نفسي أولاً: "هل سيفخر بي قلبها؟". وإذا شرعتُ في كتابة فصل جديد من روايتي، كنتُ أكتبه وعيناها تراقباني من خلف السطور. لقد علمتني آية أن الإنجاز "الحقيقي ليس في "الكم"، بل في "الأثر".

في أحد المساءات، وكنا نجلس في شرفة الكلية المطلة على قصر الزعفران، كان الصمت يلفنا، وهو صمت لم يعد يزعجني كما كان يفعل في الماضي. نظرتُ إليها وهي تتأمل الغروب، وشعرتُ برغبة مفاجئة في أن أحكي لها عن "الجرح الكبير" الذي لم أبوح به لأحد بالتفصيل؛ قصة النصف مليون جنيه التي ضاعت في هباء "التليجرام".

آية.. أنا كنت في يوم من الأيام غني جداً، أو كنت فاطر نفسي "كده"، بدأتُ الحديث وصوتي يشوبه الحذر. قصصتُ عليها كل شيء؛ الصعود السريع، الغرور الذي أكل روحي، كيف كنتُ أرى الناس صغاراً، وكيف خذلني العالم الرقمي وتركني عارياً من المال ومن الحلم.

كنتُ أتوقع أن تندهش، أو ربما تخاف من تقلباتي الماضية. لكنها، كعادتها، فاجأتني بهدونها. نظرتُ إليّ بابتسامة رقيقة وقالت:

عارف يا معتر.. الفلوس اللي ضاعت دي مكنتش خسارة، دي " كانت تمن "الدرس". لو كنت فضلت معاك، مكنتش هتدخل عين شمس، ومكنتش هتكتب روايتك، والأهم من ده كله.. مكنتش "هتعرف قيمة الحاجات اللي مش بتتشرى بالفلوس

أمسكت بيدي لأول مرة، وكانت لمستها كفيلة بترميم كل الكسور القديمة.

أنا مش حابة معتر المليونير يا معتر.. أنا حابة معتر اللي بيحاول، " معتر اللي بيقع ويقوم وهو أقوى. الفلوس بتروح وتيجي، بس "الراجل اللي جواه معدن أصيل هو اللي بيفضل

في تلك اللحظة، سقطت آخر قلاعي الدفاعية. أدركتُ أن أولوياتي قد تغيرت تماماً. لم يعد هدفي أن أستعيد "النصف مليون"، بل أصبح هدفي أن أكون "الرجل" الذي تستحق أن تستند إليه. لم يعد يهمني أن يصفق لي المئات في المدرجات، بل كان يكفيني أن تهمس لي بكلمة تشجيع واحدة في لحظة تعب.

بدأتُ أنسحب تدريجياً من ضجيج الأنشطة الطلابية التي لا طائل منها. قلصتُ دائرة معارفي لتقتصر على الصادقين فقط. ركزتُ كل طاقتي في دراستي وفي كتابتي، وفي بناء مستقبل "حقيقي" يقف على أرض صلبة، لا على ثغرات إلكترونية زائلة.

كانت آية تعيد صياغتي من جديد. كانت تعلمني كيف أصلي بخشوع، كيف أحب أمي ببرٍ أعظم، وكيف أرى في الفقر كرامة، وفي الصبر قوة. شعرتُ أن الفراغ العاطفي الذي كان ينهش صدري قد امتلأ تماماً، ولم يعد هناك مكان للخوف أو للوحدة.

ومع اقتراب شهر مايو من عام 2025، كان قراري قد اتخذ. لم أعد أحتمل أن تظل علاقتنا في حدود "الزمالة" أو "الوعود الشفهية". أردتُ أن أعلن للعالم كله أن هذه المرأة هي "وطني"، وأني وجدتُ فيها السكن الذي افتقدته منذ رحيل أبي.

بدأتُ أرتب لتلك الخطوة الكبيرة. كنتُ فقيراً في المادة، لكنني كنتُ غنياً جداً باليقين. كنتُ أعلم أن الطريق لن يكون مفروشاً بالورود، وأن التحديات المالية ستواجهني، لكن وجود آية بجانبني جعلني أشعر أنني أمتلك كنوز الأرض.

كنتُ أردد في سري، وأنا أنظر إلى التاريخ في مفكرتي: "يوم 5 مايو.. سيكون يوم الميلاد الحقيقي لمعتز وآية". ولم أكن أعلم أن هذا اليوم سيكون بداية لأجمل فصول حياتي، الفصل الذي سينتهي يوماً ما بطفل صغير يحمل ملامحي وهدوء أمه، طفل سأسميه "زين"، ليكون زينة الحياة التي بنيناها بالدمع والصبر والحب. لم تكن شمس الخامس من مايو لعام 2025 مجرد ضياء يعلن بداية يوم جديد، بل كانت نتاج سنوات من العتمة، انقشعت أخيراً لتفسح المجال لفجر طال انتظاره. وقفتُ أمام المرأة في غرفتي، أعدل ربطة

عنقي بيدين ترتعشان ارتعاشة لم أعرفها حين كنتُ أدير صفقات
الآلاف، ولا حين وقفتُ أمام لجان الامتحانات. كانت ارتعاشة
"الهيبة"، هيبة الميثاق الغليظ الذي أوشتُ على عقده

نظرتُ إلى انعكاسي في المرآة، فرأيتُ رحلة العمر كلها تمر في
لحظة. رأيتُ الطفل الذي بكى والده الغائب، والشاب الذي توهم
الثراء خلف الشاشات، والطالب الذي سهر الليالي لينتزع مكانه في
"عين شمس". كل هؤلاء سكنوا ملامحي الآن، لكنهم باركوا
"معتز" الجديد، الرجل الذي وجد أخيراً وجهته

دخلتُ أمي الغرفة، كانت ترتدي أجمل ما عندها، وعيناها تفيضان
بدموع هي أعلى من كل كنوز الأرض. اقتربت مني، ووضعت يدها
:على كتفي، وهمست بصوت يخنقه الفرح

"مبروك يا عريس.. النهاردة بس قدرت أحس إن تعب السنين "
"مجاهش بلاش. النهاردة سلمتك للي هتكمل معاك الطريق بجد
قبلتُ يدها وجبينها، وقلتُ بصوت متهدج: "الفضل ليكي يا أمي..
"لولا دعواتك وصبرك مكنتش وقفت الوقفة دي

تحركنا نحو بيتها. كانت المسافة تبدو قصيرة في الأمتار، لكنها في
قلبي كانت رحلة عبر الزمن. وصلتُ إلى هناك، وعندما انفتح الباب
ورأيتُ "آية"، توقف العالم عن الدوران. كانت كحلْم تجسد في ثوبٍ
ناصر، جمالها لم يكن في ملامحها فحسب، بل في ذلك الصفاء الذي

يحيط بها. نظرت إليّ بابتسامة هي كل ما أحتاجه لأشعر أنني أملك
الدنيا.

في تلك الجلسة العائلية الدافئة، وأنا أضع الخاتم في إصبعها، شعرتُ
بكهرباء تسري في روحي. لم يكن مجرد معدن يطوق إصبعاً، بل
كان عهداً بأنني سأكون السند الذي حُرمتُ منه، والأمان الذي بحثتُ
عنه طويلاً. في تلك اللحظة، وتحديداً في الخامس من مايو 2025،
أعلنتُ قلبي منطقة محتلة بحبها للأبد.

مبروك يا معتز"، همست لي وهي تنظر في عيني بعمق "

الله يبارك في عمري اللي بدأ بيكي يا آية"، رددتُ بيقين لم يسبق "
له مثيل.

لقد تغيرت حياتي في ذلك اليوم تغيراً جذرياً. لم يعد "الأنا" هو
المحرك، بل أصبح "النحن". شعرتُ أنني ولدتُ من جديد، بلا جراح
قديمة، بلا خذلان، وبلا خوف. أحببتها بصدق جعلني أرى العالم من
منظور مختلف؛ منظور الرعاية والمسؤولية والشغف.

كانت الفرحة تملأ المكان، والمباركات تنهال علينا، لكنني كنتُ في
عالم آخر. كنتُ أنظر إليها وأفكر في المستقبل، في البيت الذي
سنبنيه، في الروايات التي سأكتبها وهي بجانبني، وفي ذلك الطفل
الذي سيأتي يوماً ليحمل ملامحنا، طفلنا "زين" الذي سأحكي له

يوماً كيف أن والده كان تائهاً حتى وجد أمه، وكيف أن الخامس من مايو كان تاريخاً لميلاد عائلة بدأت بحلمٍ وانتهت بحقيقة

خرجتُ من بيتها في تلك الليلة وأنا أشعر أن الأرض لا تسعني من الفرحة. نظرتُ إلى السماء الصافية وشكرتُ ربي الذي أخذ مني الكثير، ليعطيني في النهاية "آية". لم أكن أعلم أن هذا الطريق الجميل سيواجه اختبارات صعبة، وأن حبنا سيُوضع تحت مجهر الواقع وقسوة الظروف، لكنني في تلك الليلة، كنتُ مستعداً لمواجهة جيوش العالم كلها من أجل تلك الابتسامة

لقد بدأت الحكاية الحقيقية الآن، وكل ما فات كان مجرد مقدمة مملة لقصة عشقٍ ولدت لتبقى

مرت الأيام الأولى بعد الخامس من مايو وكأنها مشهد سينمائي طويل مشبع بالألوان الزاهية. كانت أصابعي تلمس الخاتم في يدي بين الحين والآخر لأتأكد أنني لا أحلم، وأن "آية" قد أصبحت رسمياً رفيقة دربي. لكن، وكما هي العادة في حياتي، لا تتركني الفرحة طويلاً دون أن يطرق القلق بابي

استيقظتُ في صباح أحد الأيام، ونظرتُ إلى هاتفي. لم تكن هناك رسائل عن أرباح "تليجرام"، ولا إشعارات بآلاف الجنيهاً. كانت هناك رسالة واحدة من آية: "صباح الخير يا خطيبي.. ربنا يعينك". "في يومك

ابتسمتُ، لكن قلبي انقبض فجأة. "يعينك في يومك" .. هذه الجملة أخذت أبعاداً جديدة. لم أعد مسؤولاً عن "معتز" فقط، ذلك الشاب الذي يمكنه أن يقضي يومه بوجبة واحدة أو ينام على سرير متهالك. الآن، هناك بيت يجب أن يُبنى، وأثاث يجب أن يُشترى، وحياة كاملة. يجب أن أؤمنها لامرأة وضعت ثقتها فيّ

فتحتُ حسابي البنكي "المتهاك" هو الآخر. الأرقام كانت صامتة، تخبرني بوضوح أن رحلة الرفاهية القديمة قد انتهت تماماً، وأني الآن طالب في جامعة عين شمس، يملك الكثير من الطموح والقليل جداً من المال. شعرتُ بالخوف لأول مرة؛ ليس الخوف من الفشل الشخصي، بل الخوف من "التقصير" في حق من أحب.

في الجامعة، التقينا عند نافورة "قصر الزعفران". كانت آية تلمع فرحاً، تحكي لي عن تفاصيل صغيرة في جهازها، وعن أحلامها في شكل بيتنا الصغير. كنتُ أسمعها وأبتسم، لكن عقلي كان يحسب تكاليف الخشب، والإيجار، ومتطلبات الحياة.

معتز.. أنت رحت فين؟" سألتني وهي تميل برأسها وتنظر في "عيني بتركيز.

تنهدتُ بعمق وقلت بصراحة: "آية.. أنا خايف. خايف مأقدرش أحقق لك كل اللي بتحلمي بيه. أنا لسه طالب، والظروف مش سهلة، وأنا "عاوز أكون لك كل حاجة

أمسكت بيدي، وبدت في عينيها تلك القوة التي جذبتني إليها منذ
اليوم الأول.

يا معتز، أنا مخدثش "الرصيد" اللي كان معاك، أنا أخذت "الراجل".
أنا عارفة إننا هنبداً من تحت الصفر، وعاوزة نبني كل طوبة سوا.
الشقة الفاضية اللي هنفرشها بالتدريج، أحلى عندي ميت مرة من
"قصر جاهز ملوش طعم"

كلماتها كانت كالماء البارد الذي أطفأ نيران قلقي، لكن "وحش
المسؤولية" بداخلي لم ينم. كنت أعلم أن الحب وحده لا يدفع
الإيجار، وأن عليّ أن أجد طريقاً جديداً لكسب العيش، طريقاً
"حقيقياً" يشبهني الآن، لا يشبه "معتز النصاب الرقمي" القديم.

بدأت أفكر في استغلال موهبتي في الكتابة والجرافيك بشكل احترافي
على منصات مثل "خمسات" وعلني. قررت أن أبدأ العمل الحر
و"مستقل"، لكن هذه المرة بكيان قانوني واسم واضح. كنت أريد أن
يكون كل قرش يدخل بيتي المستقبلي "حلالاً" ومباركاً فيه، لكي
ينمو فيه طفلنا "زين" في بيئة طيبة.

عدتُ إلى غرفتي في ذلك المساء، ونظرتُ إلى صورة آية. شعرتُ أن
الخاتم الذي ارتديه أصبح له وزن، ووزن يحفزني لا يكسرني.
"وعد يا آية.. هكون كفاية. وهتكوني أسعد واحدة في الدنيا"

كانت تلك بداية مرحلة "الكدح الجميل". المرحلة التي سأتعلم فيها كيف أوفق بين محاضراتي في الآداب، وبين عملي الشاق لتأمين مستقبلنا، وبين كتابة روايتي التي أصبحت هي الأخرى "مشروع عمري".

لم أكن أعلم أن التحديات القادمة ستختبر صبرنا إلى أقصى حد، وأن الطريق إلى "زين" سيمر عبر محطات من التعب والدموع، لكنني كنتُ موقناً بشيء واحد: "آية معي، فمن عليّ؟"

كانت شاشة الحاسوب تضيء غرفتي في ظلام الليل المتأخر، لكن هذه المرة لم تكن الأرقام المتطايرة تخص "بوتات" التليجرام أو صفقات العملات المشفرة المشبوهة. كنتُ أهدق في واجهة موقع "خمسات"، أراقب طلبي الأول الذي استلمته بعد ساعات من الجديد "المحاولات المضنية لتنسيق" معرض أعمالي.

..خمسة دولارات

نظرتُ إلى الرقم وابتسمت ابتسامة لم أفهم كنهها تماماً. في الماضي، كان هذا المبلغ لا يمثل لي ثمن كوب قهوة أحتسبه في "كافيه" فاخر بالزمالك، أما الآن، فقد كان يمثل لي "البداية". كان خمسة دولارات مغسولة بعرق التفكير، وبذل الجهد في تصميم شعار لعميل لا يعرفني ولا أعرفه، كل ما يربطنا هو جودة العمل والصدق في التنفيذ.

المال الذي يأتي من تعب، له رائحة لا تشبه رائحة المال السهل.. "

"إنه يشبه رائحة الأرض بعد المطر

تذكرت أيام الغرور، وكيف كنت أستسهل جني الآلاف. لكنني أدركت الآن أن القيمة ليست في "كم" تملك، بل في "كيف" جلبته. بدأت أستغل شغفي القديم في التصميم، وأدمجه مع ما تعلمته في الجامعة عن فلسفة الجمال والأدب. لم أعد مجرد "مصمم جرافيك" عادياً، بل كنت أحاول وضع "روح" في كل تصميم، قصة في كل شعار.

بمثابة مدرسة جديدة لي. تعلمت فيها الصبر على كان العمل حراً طلبات العملاء المتقلبة، وتعلمت قيمة الوقت الذي أقضيه بين محاضراتي في جامعة عين شمس وبين الجلوس أمام الشاشة لإنهاء التصميمات. كانت "آية" هي شريكتي في هذا الكفاح؛ كانت تراجع معي التصميمات، تعطيني رأيها "الأنثوي" الرقيق، وتشجعني في اللحظات التي أشعر فيها بالإرهاك.

معتز.. الشغل ده مبارك فيه عشان إحنا بنبدأ صح"، كانت تقول "

لي ذلك وهي تمسح على يدي في جلستنا المعتادة بالجامعة

بدأت أتخصص في تصميم الشعارات التي تحمل طابعاً فنياً، مستلهماً بعض الأفكار من تقنيات الذكاء الاصطناعي التي كنت أهواها، لكنني أضفت إليها لمستي البشرية. كنت أصمم شعارات لقنوات يوتيوب،

وشركات ناشئة، وأحياناً أغلفة كتب لكتّاب مبتدئين مثلي. كل قرش كنتُ أدخره، كنتُ أراه طوبة في جدار بيتنا المستقبلي

لكن الطريق لم يكن مفروشاً بالورود. كانت هناك ليالٍ يغلبني فيها النعاس فوق لوحة المفاتيح، وأيام أشعر فيها بضغط المذاكرة في كلية الآداب الذي بدأ يشتد مع اقتراب الامتحانات. كنتُ أعيش "صراعاً بين "معتز الطالب" و"معتز الخاطب المسؤول

في إحدى المرات، وبينما كنتُ أصمم شعاراً لمشروع يحمل اسم ، تذكرتُ أحلامي القديمة في إنشاء قناة يوتيوب "Studio AI" ضخمة. شعرتُ بوخزة من الحنين، لكنني سرعان ما طردتها. لم يعد هدفي الشهرة الزائفة، بل الاستقرار. كنتُ أرى في مخيلتي صورة ذلك الطفل الصغير، "زين"، وهو يركض في ردهات شقة واسعة، شقة اشتريتها بتعبي، وشاركتني آية في اختيار كل تفصيلة فيها

زين" .. كان هذا الاسم هو تميّمي. كنتُ أقول لنفسي: "يجب أن يكون والد زين رجلاً بنى نفسه من الركام، رجلاً يعرف قيمة القرش". الحلال، لكي يعلمه يوماً ما معنى الرجولة الحقيقية

بدأ رصيدي في الموقع ينمو ببطء ولكن بثبات. لم يعد يهمني أن أصل للنصف مليون في شهر، كان يكفيني أن أصل لثمن "ثلاجة" أو "غرفة نوم" في عام، طالما أنني أمشي في النور. اكتشفتُ أن

السعادة ليست في الوصول، بل في الرحلة نفسها، وفي الشخص الذي يمسك بيدك وأنت تتعثر في الطريق.

ومع نهاية ذلك الشهر، استلمتُ أول "أرباح" حقيقية لي من العمل الحر. كان مبلغاً بسيطاً، لكنني ذهبتُ به فوراً واشتريتُ "هدية" بسيطة لآية، وأخرى لأمي. شعرتُ حينها أنني "غني" أكثر من أي وقت مضى. لقد استعدتُ كرامتي أمام نفسي، وأثبتتُ للقدر أنني "كفاية" فعلاً، وأنتي جديراً بالحياة التي أحلم بها.

كانت الخطوات تتسارع، والتحديات تكبر، لكن قلبي كان مليئاً باليقين كانت الأرقام على شاشة الآلة الحاسبة تبدو وكأنها تسخر مني. كلما طرحتُ منها مبلغاً، قفزتُ أمامي أرقام أخرى لم تكن في الحسبان. كنتُ جالساً في غرفتي، غارقاً في دفاتر الحسابات وفواتير معارض الأثاث التي زرتها مع "آية" بالأمس.

لقد اكتشفتُ أن أحلامنا الوردية التي رسمناها في ممرات جامعة عين شمس، بدأت تصطم بصخرة الواقع المصري القاسي. أسعار الخشب تضاعفت، والأجهزة الكهربائية أصبحت تطلب مبالغ فلكية، ومدخراتي البسيطة من العمل الحر، التي كنتُ فخوراً بها، بدأت تبدو كقطرة ماء في صحراء شاسعة.

شعرتُ بضيق ينفجر في صدري. عادت إليّ تلك النعمة القديمة: "أنا مش كفاية". تذكرتُ أيام التليجرام؛ لو كانت تلك الأموال معي الآن،

لكنتُ قد جهزتُ القصر الذي تحلم به آية في غمضة عين. لكنني
".الآن، أقف عاجزاً أمام ثمن "غرفة نوم" أو "طقم أنتريه

في المساء، التقيت بآية. كانت ملامحي مخطوفة، وعيناي تتهربان
من النظر في عينيها

مالك يا معتز؟ من ساعة ما شوفنا أسعار العفش وأنت مش "
طبيعي"، قالتها وهي تضع يدها على كتفي بحنان

تهدتُ بمرارة وقلت بصوت مكسور: "آية.. أنا حسبتها يمين
وشمال، الميزانية اللي معانا مش هتعمل نص اللي إحنا عاوزينه. أنا
حاسس إنني بظلمك معايا، وإن ظموحي كان أكبر من إمكانياتي. كان
".نفسى أدخلك بيت كامل مكمل، مش بيت ناقص نص حاجته

ساد الصمت للحظة، كنتُ أتوقع أن أرى في عينيها خيبة أمل، أو
ربما قلقاً من المستقبل. لكن ما رأيته كان شيئاً آخر تماماً. ضحكت
:آية ضحكة خفيفة، ثم نظرت إليّ بكل جدية

معتز.. أنت لسه بتفكر بمنطق "المظاهر". أنا مش متجوزة عفش، "
ولا متجوزة شقة مفروشة بالكامل. أنا متجوزة راجل بيبنى نفسه
".من الصفر بكرامته

أخرجت آية من حقيبتها ورقة صغيرة وقلم، وبدأت تشطب على
بعض البنود التي كنا قد اخترناها بالأمس

غرفة السفارة؟" مش محتاجينها دلوقتي، كفاية ترايبزة صغيرة في "
المطبخ

الصالون المذهب؟" ملوش لزمة، ركنة بسيطة ومريحة تكفيننا"

أحدث تلاجة؟" نجيب اللي على قدنا، والمهم إنها تبرد الأكل"

"نظرتُ إليها بذهول: "بس يا آية.. دي حاجتك، وده حقك

ردت بقوة: "حقي هو إنك تكون مرتاح ومبسوط، مش مديون
ومهموم. إحنا بنبدأ حياتنا يا معتر، والجمال في إننا نكبر سواء،
ونكمل بيتنا حته حته بفلوسنا الحلال. البيت اللي بيتبني على مهل،
"جدرانه بتبقى أقوى

في تلك اللحظة، شعرتُ بخجل شديد من نفسي، وفي الوقت ذاته
شعرتُ بحب جارف لهذه المرأة التي لا تشبه أحداً. لقد أنقذتني آية
من بئر اليأس، وعلمتني أن القيمة ليست في "الأشياء"، بل في
".الأشخاص

أمسكتُ يدها وقلتُ بيقين: "وعد يا آية.. البيان اللي قفلناها
دلوقتي، هفتحها ليكي بكرة قصور. والبيت اللي هنبدأه بسيط،
".هيكون مليون بركة وحب

ضحكت وقالت: "وده اللي يهمني. وعشان تعرف إني واثقة فيك، أنا
".بدأت أوفر من مصروفي عشان نساعد في تمن الأجهزة

خرجتُ من هذا اللقاء وأنا أشعر أنني أملك طاقة جبارة. لم يعد
نقص المال يمثل لي "عجزاً"، بل أصبح "تحدياً". عدتُ إلى
، وبدأتُ أعمل بضعف المجهود. كنتُ أصمم شاشتي، وإلى شعارات
.وكأنني أبني جدران بيتنا بيدي

كنتُ أتخيل ذلك اليوم الذي سأدخل فيه بيتنا الصغير مع آية،
ونضحك على ذكريات هذا اليوم. وتخيلتُ أكثر.. تخيلتُ "زين"، ابنا
الذي سيأتي يوماً، وسأحكي له كيف أن أمه كانت هي البطله
الحقيقية في بناء هذا الكيان، وكيف أن والده تعلم أن الرجولة هي
أن تجد الشخص الصحيح الذي يحارب معك، لا الشخص الذي ينتظر
نصرك.

لقد كانت الأزمة المالية أول اختبار، وبفضل آية، تحول الاختبار إلى
"شهادة ميلاد" جديدة لحبنا

لم تكن شاشة الحاسوب في غرفتي مجرد أداة للعمل بعد الآن، بل
أصبحت "نافذة الرزق" التي فُتحت على مصراعيها بفضل

الإخلاص. بعد أشهر من العمل المضني على منصات العمل الحر، بدأ اسمي يبرز. لم يعد العملاء يطلبونني لأنني "الأرخص"، بل لأنني "الأفضل" في تحويل أفكارهم إلى هويات بصرية تنبض بالحياة.

تطورت مشروعاتي من شعارات بسيطة إلى هويات كاملة لمشاريع ليست مجرد نماذج في معرض ناشئة. أصبحت علامات مثل أعمالتي، بل كانت قصص نجاح حقيقية ساهمت في رسم ملامحتها. ومع كل تقييم "خمس نجوم" كنتُ أحصل عليه، كنتُ أشعر أنني أبني جسراً من الثقة فوق حطام الماضي الرقمي الزائف.

المال الذي بدأ يتدفق الآن كان له "طعم" مختلف تماماً. لم يكن يأتي في دفعات هستيرية ومشبوهة كأيام التليجرام، بل كان يأتي كأجر عادل مقابل ساعات من السهر والإبداع. ومع كل مبلغ كنتُ أسحبه من ماكينة البنك، كنتُ أشعر بكرامة لم أشعر بها حين كنتُ أملك النصف مليون جنيه.

هناك فرق هائل بين أن تملك المال لأنك 'خدعت' النظام، وبين أن "تملكه لأنك 'أفدت' البشر".

في يوم لا يُنسى، وقفتُ مع "آية" أمام معرض الأثاث الذي كنا قد خرجنا منه منكسري الخواطر قبل أشهر. هذه المرة، دخلتُ بخطوات ثابتة، ومعني ثمن "غرفة النوم" التي اخترناها سوياً، كاملاً، من تعب يدي.

معتز.. أنت متأكد؟" همست آية وهي تنظر إلى المبلغ في يدي " بذهول

ابتسمت وقلتُ لها بيقين: "متأكد يا آية. ده مش بس تمن خشب ومسامير، ده تمن السهر، وتمن تشجيعك ليا، وتمن كل مرة قولت لي فيها إني 'كفاية'. النهاردة إحنا مش بنشتري عفش، إحنا "بنشتري أول حجر في مملكتنا

كانت الفرحة في عينيها تفوق كل وصف. رأيتُ فيها تلك البنت التي صبرت وظفرت، والتي آمنت بفقير حتى أصبح بجهد غنياً بنفسه. لم نعد نشطب على البنود في الورقة الصغيرة، بل بدأنا نضع علامات (صح) بجانبها بزهو المنتصرين

في الجامعة، بدأ التغيير يظهر عليّ بوضوح. لم أعد ذلك الطالب القلق من المصاريف، بل أصبحتُ نموذجاً لزملائي في "آداب عين شمس" عن كيفية الجمع بين الدراسة والعمل الحر. حتى أساتذتي بدأوا يلاحظون نضج قلبي في أبحاثي الأدبية؛ فقد صقل العمل عيني، وصقلت آية روعي، وصقلت الجامعة عقلي

اقترب موعد الزفاف. أصبحت الأيام تتسارع كأنها دقائق قلب متسارعة. بدأتُ أتخيل الشقة وهي تمتلئ بقطع الأثاث قطعة قطعة، وبدأتُ أشم رائحة "البيت" في كل ركن. لم يعد "الخوف" هو سيد "الموقف، بل "اللهفة

وفي إحدى ليالي العمل، وبينما كنتُ أصمم غلافاً لكتاب يتحدث عن "الذكاء الاصطناعي والمستقبل"، توقفتُ قليلاً ونظرتُ إلى الخاتم في إصبعي. فكرتُ في "زين". فكرتُ كيف سأخبره يوماً أن والده لم يرث ثروة، ولم يجد كنزاً، بل صنع كنزاً من "لا شيء" عندما وجد الإنسانة الصحيحة التي تسنده.

لقد اقتربنا يا زين. البيت الذي ستكبر فيه بدأ يكتمل، والاسم الذي ستحملة أصبح مرادفاً للكفاح والنجاح الحلال. لم يعد متبقياً سوى خطوات قليلة لنغلق بابنا علينا، ونبدأ الفصل الأجمل في روايتنا..
فصل "العائلة"

كانت الأيام العشرة الأخيرة قبل الزفاف تشبه الإعصار؛ لكنه إعصار من الفرحة والركض اللذيذ. رائحة الطلاء الجديد كانت لا تزال عالقة في أركان الشقة، ممزوجة برائحة الخشب التي تملأ المكان. كنتُ أنتقل بين الكرتين المقدسة، وأكياس المفروشات، وقطع الأثاث التي وضعناها بعناية فائقة، وكأنني أرتب قطعاً من روعي لا مجرد قطع خشبية.

في ليلة "نقل العفش"، وقفتُ في وسط الصالة وحدي للحظة. نظرتُ إلى النجفة البسيطة التي تتدلى من السقف، وتذكرتُ اليوم الذي كنتُ فيه أبكي ضياع أموالي. لو أخبرني أحد حينها أنني سأقف هنا، في بيتي الحلال، مستعداً لبدء حياة مع الإنسانة التي اختارها قلبي، لكنتُ اتهمته بالجنون. لكن الله لا يعطينا ما نريد دائماً، بل يعطينا ما نحتاج.. وقد كانت "آية" هي كل ما أحتاجه.

جاء يوم الزفاف.

كانت القاهرة تبدو لي في ذلك اليوم كعروسٍ هي الأخرى. في القاعة، وبين صخب الأغاني وضحكات الأصدقاء من جامعة عين شمس، كنتُ أنظر إلى آية بجانبِي. كانت تلمع في ثوبها الأبيض كاللؤلؤة. لم تكن مجرد عروس، كانت شريكة الكفاح، البنت التي آمنت بالرؤيا قبل أن تتحقق، والتي لم تبالِ بفقرِي المؤقت لأنها رأت فيّ غنى نفسي.

همستُ لها وسط الزحام: "أخيراً يا آية.. قفلنا الكتاب القديم وهنبدأ
"نكتب قصتنا بجد

ابتسمت بدموع فرحٍ وقالت: "إحنا كتبنا أهم فصل خلاص يا معتز..
"فصل الصبر

وعندما انتهى الحفل، وودعنا الجميع، وجدنا أنفسنا أخيراً أمام باب شقتنا. وضعتُ المفتاح في القفل، ويدي ترتجف قليلاً. لم يكن هذا مجرد باب شقة، كان بوابة لعالم جديد، عالم لا يدخله الغرور، ولا يلوّثه المال الحرام، عالم محكوم بالحب والستر.

فتحتُ الباب، وخطونا للداخل. ساد السكون فجأة، وانقطع ضجيج العالم بالخارج.

نظرتُ حولنا؛ الأريكة التي اخترناها بصعوبة، السجادة التي وفرت آية من مصروفها لتكمل ثمنها، والمطبخ الصغير الذي سيشهد أول وجبة لنا معاً. كل شيء في المكان كان يصرخ: "لقد فعلتها يا معتز.. لقد أصبحت كفاية".

جلستُ على طرف الأريكة، وشعرتُ بتعب السنين كلها يزول في لحظة واحدة. آية كانت تتحرك في المكان بخفة، ترتب لمساتها الأخيرة بلمسة أنثوية جعلت الجدران الصامتة تنطق بالدفء.

تعرف يا معتز؟" قالت وهي تقف بجانبني وتنظر من الشرفة إلى "أضواء المدينة، أنا مش عاوزة حاجة من الدنيا غير إن البيت ده يفضل مليون بضحكتك، وإننا نربي ولادنا على الصدق اللي شوفتوا فيك".

أمسكتُ يدها، ونظرتُ نحو الغرفة التي خصصناها لتكون "غرفة الأطفال". رأيتها في خيالي ممتلئة بالألعاب، ورأيتُ طفلاً صغيراً بملامح هادئة يركض نحونا.

هيكون اسمه زين يا آية"، قلتها بيقين. "زين.. عشان يكون زينة" حياتنا اللي بدأناها من تحت الصفر، وعشان أعلمه إن أبوه معملش "معجزات، أبوه بس حب أمه بجد وتوكل على الله

في تلك الليلة، لم أنم من الفرحة. كنتُ أنظر إلى السقف وأفكر في "معتز" الذي كان قبل سنوات يظن أن السعادة في شاشة تليجرام

وأرصدة بنكية وهمية. كم كنتُ أحمقاً! السعادة كانت هنا، في رائحة البيت الحلال، وفي أنفاس الإنسانة التي تحبك لذاتك، وفي شعور الرضا الذي لا يُشترى بكنوز الأرض.

لقد وصلنا يا زين. بيتك جاهز، والدك الآن رجلٌ حقيقي، مستعدٌ لاستقبالك بقلبٍ صلبٍ ويدٍ ظاهرة

(7)

لم تكن شمس الصباح التي تدخل شرفتنا الصغيرة تشبه أي شمس عرفتها من قبل. كانت تحمل معها رائحة القهوة التي تعدها "آية" بهدوء، وصوت فيروز الخافت المنبعث من الراديو الصغير في المطبخ. في تلك الشهور الأولى من زواجنا، اكتشفتُ أن السعادة ليست في الصخب، بل في تلك التفاصيل الرتيبة التي تبني جدران البيت.

تحولت زاوية صغيرة في غرفة المعيشة إلى مكتبي الخاص. لم يعد "عالمي الافتراضي" مكاناً للهروب، بل أصبح مصدراً للرزق والكرامة. كنتُ أجلس أمام شاشتي، أصمم الشعارات لعملاء من مختلف أنحاء العالم، بينما تجلس آية بجواري تراجع دروسها أو تقرأ رواية. كان وجودها في الغرفة يمنح عملي معنىً لم أكن أجده وأنا وحيد.

معتز.. القهوة بردت، سيب اللي في إيدك شوية، " كانت تقولها " وهي تضع الكوب بجوار "الماوس"، فأنظر إليها وأبتسم، وأدرك أنني أخيراً وصلت إلى البر.

في تلك الفترة، بدأت في كتابة الفصول الأخيرة من روايتي "لم أكن كافياً". لم تعد الكتابة مجرد تفريغ للوجع، بل أصبحت توثيقاً للانتصار الإنسان على مخاوفه. كنتُ أكتب عن معتز الذي كان يظن أن قيمته في أرصدته البنكية، ليكتشف أن قيمته الحقيقية في قدرته على أن يكون "سكناً" لإنسانة مثل آية.

وبعد شهور قليلة من زواجنا، حملت لنا الأيام الخبر الذي جعل جدران بيتنا تتراقص فرحاً.

في مساء هادئ، اقتربت مني آية، كانت عيناها تلمعان ببريق مختلف، وبيد ترتجف قدمت لي ورقة صغيرة. نظرتُ إليها، ثم إليها، ولم أستطع منع دموعي من السقوط.

"إحنا.. إحنا بجد هنبقى أب وأم يا آية؟"

أومأت برأسها وهي تبكي ضاحكة: "أيوه يا معتز.. زين جاي في الطريق".

منذ تلك اللحظة، تغير كل شيء. لم يعد عملي من أجل "التجهيزات" أو "الالتزامات"، بل أصبح من أجل "المستقبل". بدأت أتخيل ذلك

الصغير وهو يحبو في الأرجاء. كنتُ أقضي ساعات في "غرفة الأطفال" التي بدأنا في تجهيزها ببطء؛ نختار الألوان الهادئة، ونشتري بضع قصص أطفال لنضعها في رفٍ صغير، وكأننا نستعجل الزمن لكي نراه.

كانت آية في شهور حملها الأولى تتعب كثيراً، وكنتُ أجد متعة غريبة في خدمتها. كنتُ أعد لها الطعام، وأسهر بجانبها، وأحكي لـ "زين" وهو لا يزال جنيناً عن رحلة والده. كنتُ أقول له: "يا زين، أنا استنيتك كثير.. وعملت كل حاجة عشان لما تيجي، تلاقي أب" .يفتخر بيه، مش أب هرب من واقعه

استمر عملي في الجرافيك في النمو. بفضل سمعتي الطيبة، بدأت العقود الكبيرة تنهال عليّ. لم أعد أبحث عن العمل، بل أصبح العمل هو من يبحث عني. كنتُ أدير مشاريع لهويات بصرية لشركات ناشئة، وأستخدم مهاراتي في الذكاء الاصطناعي لتقديم تصاميم سابقة لعصرها، تماماً كما حلمت في

لكن الأهم من النجاح المادي كان النجاح "النفسي". لم أعد أشعر بالدونية أمام زملائي في جامعة عين شمس الذين تخرجوا وبدأوا حياتهم. كنتُ أسير في ممرات الجامعة وأنا أحمل شهادة "الرجولة" قبل شهادة التخرج.

في المساء، كنا نجلس أنا وآية، نخطط لليوم الذي سيولد فيه زين.
كنا نتخيل ملامحه، هل سيشبهني في عنادي؟ أم سيشبه أمه في
هدوئها وحكمتها؟

هيكون زيك يا معتز.. هيكون طموح وقلبه أبيض، " كانت تقول لي "
وهي تمسك يدي

لقد استقرت السفينة أخيراً يا زين. المرفأ الذي رسونا فيه مليء
بالحب والرضا. ولم يتبق سوى أن تفتح عينيك لتكتمل اللوحة،
ولتكون أنت المسك الذي يختم تعب السنين

كانت غرفته هي المشروع الأهم في حياتي، أهم من كل تصاميم
الجرافيك التي أنجزتها، وأعمق من كل فصول الروايات التي كتبتها.
"غرفة زين". لم تكن مجرد أربعة جدران لونها بالأزرق
السماوي، بل كانت "حضاناً" كبيراً أبنيه قبل أن يأت

كنتُ أقف لساعات أمام السرير الخشبي الصغير الذي قمتُ بتجميعه
بنفسي، مسماراً وراء مسمار. ومع كل حركة للمفك في يدي، كنتُ
أشعر أنني أربط جراح طفولتي. كنتُ أقول في سري: " هذا السرير
.. "لن يكون مهجوراً أبداً يا زين.. والدك لن يغيب كما غاب والده

تحولت شقتي إلى خلية نحل هادئة. "آية" في شهورها الأخيرة،
كانت تمشي بخطوات ثقيلة ومقدسة، تحمل في أحشائها معجزتنا
الصغيرة. كنتُ أراقبها وهي تطوي ملابسها الصغيرة؛ تلك القمصان
التي لا تتعدى كف اليد، والجوارب التي تبدو كأنها لدمية. كانت

ملاحمها تفيض بحنانٍ جعلني أدرك أن الله قد عوضني بها عن كل
حرمانٍ ذقته

معتز.. تعال بسرعة!" نادتنني آية وهي جالسة على الأريكة"
"هرعتُ إليها وقلق العالم كله في عيني: "في إيه؟ حاسة بحاجة؟"
ابتسمت بهدوء وأخذت يدي ووضعتها فوق بطنها: "اسكت واسمع.."
"زين بيسلم عليك"

لأول مرة، شعرتُ ببركة قوية وواضحة تحت كفي. كانت نبضة
حياة، حركة متمردة تخبرني أن هناك "إنساناً" حقيقياً سيسكن
عالمنا قريباً. في تلك اللحظة، تجمدت الدموع في عيني. شعرتُ
برعشة هزت كياني؛ هذه الركلة كانت أقوى من كل الصدمات التي
تلقيتها في حياتي، كانت رسالة من الغيب تقول لي: "استعد.. أنت
..الآن مسؤول عن روح"

في مكتبنا الصغير، كان العمل يسير ببركة لم أعرفها من قبل.
، ذلك الحلم القديم، بدأ يتحول إلى واقع "Studio AI" شعرتُ أن
حقيقي وناجح. لم يعد مجرد اسم لقناة يوتيوب، بل أصبح علامة
تجارية لعملي الحر الذي يوفر لأسرتي حياة كريمة. كنتُ أصمم وأنا
أبتسم، وأكتب وأنا أشعر بالامتلاء

الأبوة ليست بيولوجيا، الأبوة هي أن تقرر أن تكون "البطل" في " قصة شخص آخر، حتى لو كنت في قصتك مجرد إنسان عادي تعب "من الركض

في إحدى الليالي، وبينما كان الهدوء يلف بيتنا، جلستُ بجوار آية نتحدث عن طموحاتنا لزين

.عاوزه يطلع إيه يا آية؟" سألتها وأنا أمسد على رأسها"

ردت بيقين: "عاوزاه يطلع 'راجل' زيك يا معتز. راجل بيعرف يعتذر لما يغلط، وبيعرف يقوم لما يقع، وبيعرف يحب بجد. مش مهم "الشهادة ولا الفلوس، المهم يكون عنده 'أصل

كلماتها جعلتني أشعر بحملٍ ثقيلٍ وجميلٍ في آنٍ واحد. كان عليّ أن أكون هذا "القدوة" التي تتحدث عنها. لم يعد مسموحاً لي باليأس أو التراجع

جهزنا "حقيبة المستشفى" ووضعناها بجوار الباب. أصبحت تلك الحقيبة هي الرمز الأخير لانتهاؤ مرحلة "الزوجين" وبداية مرحلة "العائلة". كنتُ أختلس النظر إليها كلما خرجتُ للعمل، وأدعو الله أن تمر اللحظة بسلام، وأن يقر عيني برويته

كنتُ قد أنهيتُ الرواية، وأسميتها "أنا الآن كافٍ". غيرتُ العنوان من "لم أكن كافياً" إلى صيغة الحاضر الممتلئ بالثقة. فقد علمتني

آية، وسيعلمني زين، أن الإنسان يكون "كافياً" عندما يجد الحب الحقيقي، وعندما يبني حياته على الصدق، وعندما يدرك أن أعظم إنجازاته لن تكون في حساب بنكي، بل في نظرة فخر في عين زوجته، وصرخة حياة من ابنه.

اقترب الموعد يا زين.. ونحن هنا، في "مرفأ السكينة"، ننتظر وصول سفينتك الصغيرة لتتير ليلنا للأبد

كانت ممرات المستشفى باردة وساكنة، إلا من صوت خطواتي القلقة التي لم تتوقف منذ ساعات. رائحة المعقمات تخنق أنفاسي، وضجيج أفكاري يملأ رأسي. في تلك اللحظات، شعرت أنني أقف على البرزخ الفاصل بين حياتين؛ حياة "معتز" الذي كان يبحث عن نفسه، وحياة "معتز" الذي سيصبح مسؤولاً عن روحٍ أخرى.

وفجأة، شقَّ سكون المكان صرخةً حادة.. صرخةً لم تكن كأي صوت سمعته في حياتي. كانت صرخة احتجاج على الخروج للعالم، لكنها كانت بالنسبة لي أعذب سيمفونية كتبت منذ بدء الخليقة. صرخة أخبرتني أن "زين" قد وصل.

خرجت الممرضة تحمل لفةً بيضاء صغيرة، اقتربت منها ويدي ترتجفان وكأنني ألمس شيئاً مقدساً. نظرت إلى وجهه الصغير، ملامحه الهادئة التي تشبه أمه، وجبينه العريض الذي ربما ورثه مني. في تلك اللحظة، شعرت بذوبان كل جبال الجليد التي تراكمت في قلبي منذ طفولتي.

أهلاً بك يا زين.. أهلاً بك في عالمنا الصغير الحلال، " همستُ بها " .
وعبراتي تسيل بلا استئذان

دخلتُ إلى "آية" وهي في غرفتها، كانت منهكة لكن وجهها كان
يشعُّ بنورٍ لا يوصف. وضعتُ زين في حضنها، فنظرت إليّ بابتسامةٍ
لخصت كل سنوات الكفاح، وكل لحظات الضيق التي مرت بنا، وكل
الرغبات التي شطبنا عليها من أجل هذا اليوم

شوف يا معتر.. زين بقي حقيقة،" قالت بصوتٍ واهن ممتلئ " .
بالفخر

أمسكتُ يدها وقبلتها طويلاً: "الحقيقة هي إنتي يا آية.. إنتي اللي
"خليتي لكل حاجة معنى

عدنا إلى بيتنا، لكنه لم يعد مجرد بيت لزوجين، أصبح مملكة لثلاثة.
وقفتُ في مكتبي الصغير، ونظرتُ إلى شاشة حاسوبي وإلى روايتي
المكتملة. شعرتُ أنني لم أعد بحاجة لإثبات أي شيء لأي شخص. لم
أعد أهتم برأيي والذي الذي غاب، ولا بنظرة المجتمع الذي يقدر
المال السريع

أدركتُ في تلك اللحظة الختامية حقائق لم تكن لتتكشف لي لولا تلك
الرحلة:

القيمة الحقيقية: ليست في الرصيد البنكي الذي يُبنى على الرمال، بل في اليد التي تشدُّ على يدك وأنت في القاع

النجاح الحلال: طعمه أذُّ بمراحل، حتى لو كان قليلاً، لأنه يبني بيوتاً لا تهدمها العواصف

الاكتفاء: هو أن تنظر إلى زوجتك وابنك وهما نائمان بسلام، وتشعر أنك تمتلك الكون وما فيه

لم يكن الطريق سهلاً، ولم تكن الصفقات هي الراححة، لكنني " اليوم، وأنا أحمل ابني وأستند إلى زوجتي، أدركُ يقيناً أنني بجهدِي " وصبري وحبهم.. أنا الآن كافٍ

أغلقتُ الحاسوب، وأطفأتُ ضوء المكتب، وتوجهتُ نحو غرفة زين. نظرتُ إليه وهو نائم، ووعده في سري بأن أكون له الأب الذي يفتخر به، والأمان الذي لن يغيب أبداً

انتهت الرواية على الورق، لكن حكايتنا مع زين، بدأت للتو